

محمد عبد الغنى حسن

دار المعارف

ملاح من المجتمع القري

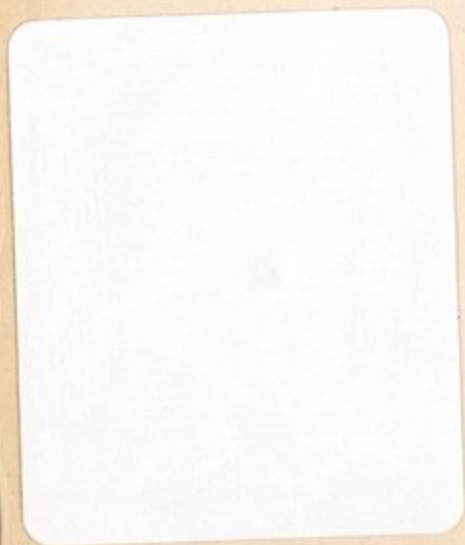
دار المعارف بمصر

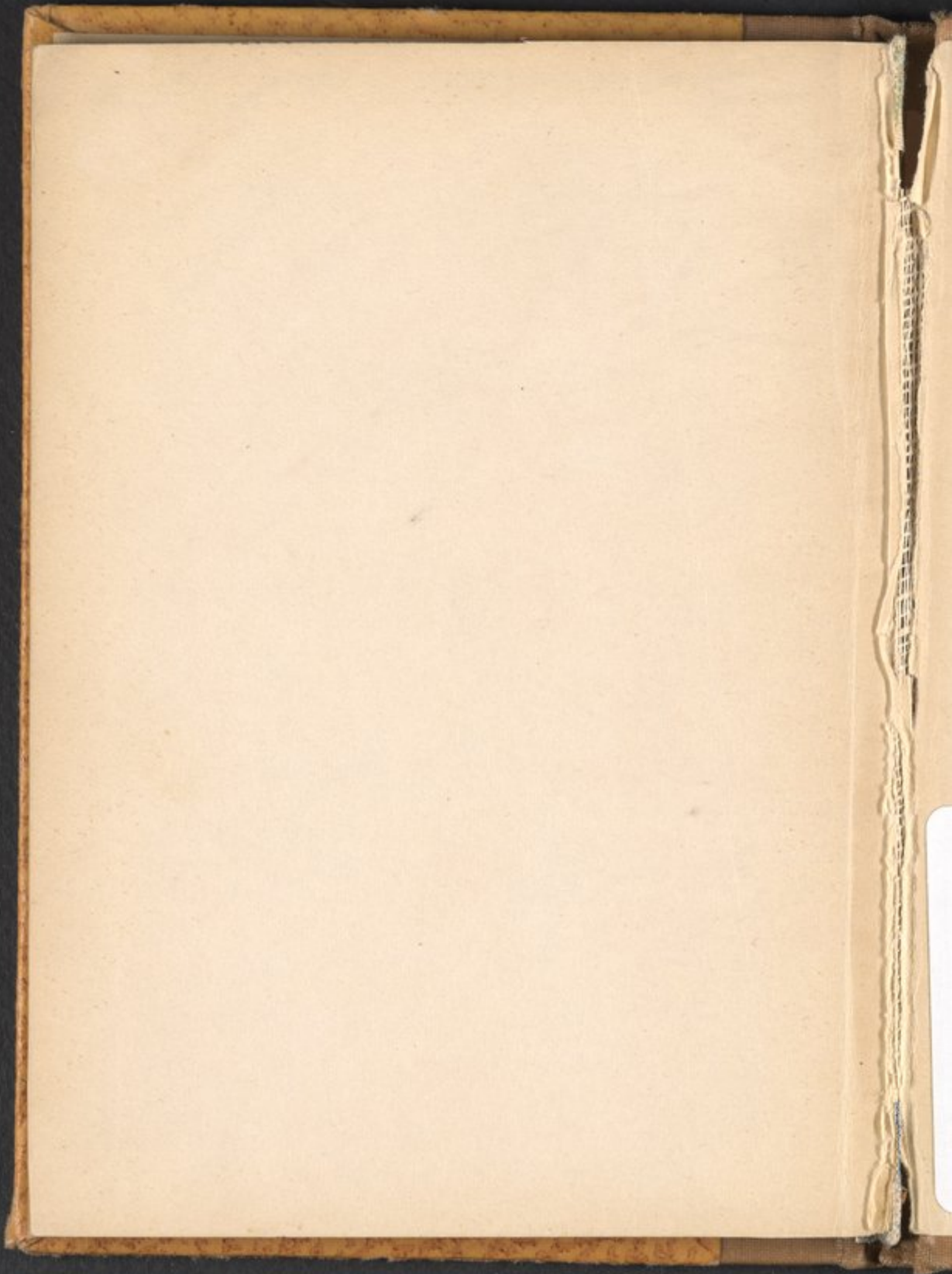
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

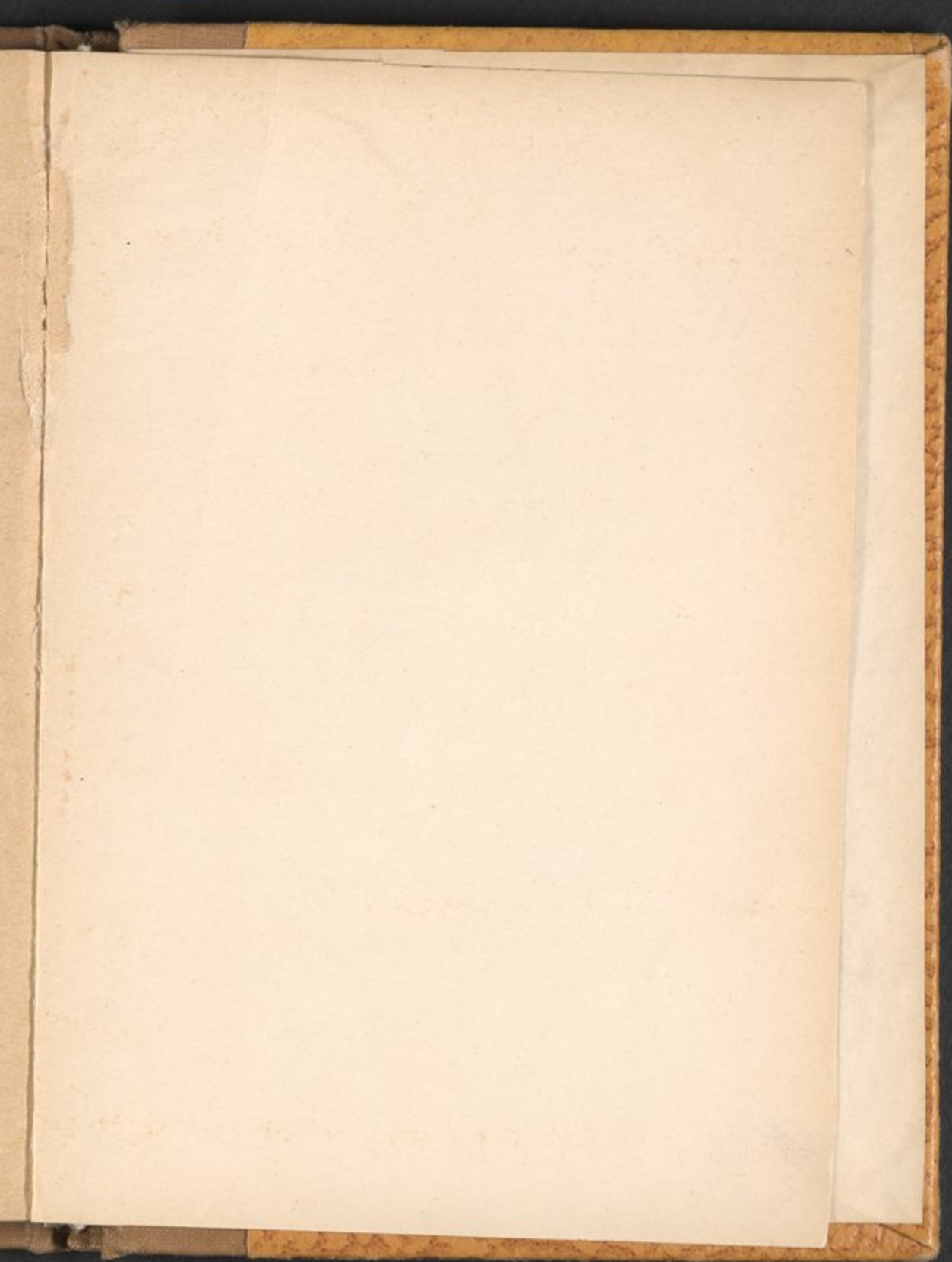


3 8534 01073 1580

01-B 5605
p. 8-10-01







مَدَامَحِ مِنَ الْمَجْمَعِ الْقَرْبِيِّ

Hasan, Muh. 'Abd al-Ghani

محمد عبد الغني حسن

DS

38

H 3X

1951

مدائح من المجتمع القرني

١٠٢

اقرأ

دار المعارف للطباعة والنشر

اقرأ ١٠٢ — يولييه سنة ١٩٥١

٩٥٣
٢٠٢٢



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

37574

استهلال

تحول في العادات - المجتمع العربي وطبقاته

- أغنياء وفقراء - مجتمع فكه . . .

تعال معي - أيها القارئ الكريم - نجل جولة في بقاع
من الأرض نشر الإسلام عليها رايته بعد الفتح ، وانتشر العرب
فيها بعد خروجهم من جزيرة مقفرة ، يقيمون فيها حضارة
جديدة ، ويحملون معهم من معادن الصحراء أكرم ما فيها
من عناصر ، ثم يمدّون إلى بلاد الله يوسعونها فتحاً وتعميراً ،
فلا تقف دون غاياتهم أسداد ، ولا يعز على همهم مطلب . .
ولا يتجردون في غمار الفتوح تتلو الفتوح من أرواحهم العربية
ولا ثيابهم العربية . . حتى إذا صهرتهم الأوطان الجديدة في
بواتقها ، وخالطوا الروم ، وامتزجوا بالفرس ، وعاشروا أخلاطاً
من الناس غير هؤلاء وهؤلاء - ظلوا مع ذلك محتفظين بأكرم
ما في عناصرهم ، وبقي لهم كثير من طبائعهم الموروثة . .
بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فأشاعوا في المجتمعات الجديدة التي
خلقوها بحكم الفتح روحاً جديدة هي بضعة من أرواحهم .
ولن أعنف بك أيها القارئ الكريم في السير بما يشق عليك

أو يرهقك من أمرك عسراً . . . وسأنتقل بك — رقيقاً — من أرض إلى أرض ، من تلك الإمبراطورية الإسلامية التي شرقت وغربت حتى ذهبت إلى ما وراء المياه الخضر للمحيطات . . . ولا تخش أن يطول عليك وعلى الطريق بما يقطع الأنفاس .. فإننا لا نعدم أن نجد في بعض الطريق محطاً للرحال ، نلتمس عنده الماء والزاد والظل الظليل ، أو الملجأ الأمين . ولا تعجب إذا حدثتك أول الأمر عن هذه المحاط التي كانت لا تخلو منها طريق من الطرق التي تربط أوصال هذه المملكة العربية الواسعة الأطراف . مما يشبه اليوم تلك المواطن التي يسمونها « Rest Houses » المقامة على مسالك الصحراء .

ولا شك أنك ستخفي في نفسك يا صديقي القارئ أمراً يديه لسان حالك . . . فتقول : مالنا ولهذه الرحلة الشاقة الطويلة في مطارح بعيدة ، ومالنا نطوى عصور الأمة العربية جيلاً بعد جيل لنكشف القناع عن ماض قد باعدت بيننا وبينه الأيام ؟ ومالنا نتلفت فننظر إلى الورا نظرات ما كان أولها أن تكون إلى الإمام ؟ ؟ ولكنني أصارحك القول أن عيوننا إذا تلفتت إلى الخلف تلفت القلب وراءها ، ليفرغ لحظات من حاضره الثقيل العنيف ، لعله يستروح نسمة فيها أرج من ذلك الماضي السحيق . . . ولعل نظرة إلى الماضي تبليغ بها فتعينا

بعض العون على أن نمضى فى الطريق بهمة نستمد وقدها من
حرارة ذلك الماضى العريق . ولعل لحظات قصاراً نعيشها مع
أمس المدبر نجد فيها بلاغاً إلى مستقبل نتوسم فيه الخير .
ولا تظنن يا أخى القارئ أننى سأحملك على أجنحة من
الخيال الشارد لأعود بك القهقري مئآت ومئآت من السنين . . !
فلن أذكر لك فى هذه الصفحات إلا حقائق قرأتها لك فى
عشرات من الكتب ، وألّفت بين موضوعاتها نسباً ، فضممت
الفرع إلى أصله ، وقرنت الشبيه إلى مثله ، وكنت أقيد لك
كل صيد من الحوادث بقيد من الكتابة ، حتى إذا اجتمع لى
من ذلك — على فترات من الزمن — مادة صالحة لأن أقدمها
إليك ، تشجعت على أن أختارك معى رفيقاً فى رحلة ممتعة كل
المتاع ، على خلال العصور ، فترى معى ألواناً من المجتمع
العربى بعد الفتح الإسلامى .

* * *

ولا شك أن المجتمع العربى قد تأثر فى أوطانه الجديدة بألوان
من العيش لم تتح له وهو على مسارب الصحراء . . . ولا شك
أن أهل الأمصار والمدن قد خرجوا من تحول العادات بأوفر
نصيب . أما أهل البادية فقد ظلوا — على مدى العصور —
محتفظين بتقاليدهم . وكان هذا الاحتفاظ موضع افتخار عند

أولئك القوم الذين قال شاعرهم :

فمن تكن الحضارة أعجبتة فأى رجال بادية ترانا
ومهما يكن من أمر التحول الذى حدث فى المجتمع العربى
بعد الفتح الإسلامى فإنه على كل حال لم يكن طفرة إلا فى
الطبقات الرفيعة التى أعانتها كثرة الأموال بين يديها والنفوذ
عندها أن تحاكى أرقى طوائف المجتمع فى البلاد المفتوحة .
حتى لقد كان قصر الوليد بن عبد الملك الأموى — على قرب
عهده بالصحابه والتابعين — يزيد على قصور الفرس والروم
روعة وحسناً ، وجمالاً وجلالاً ، حتى اجتلب الرخام الأخضر
لأعمدته والأشجار الغريبة لبستانه . أما الطبقات الفقيرة فلم
يستجيبوا لداعى الحضارة الحديدية إلا بمقدار ما سمحت به
مواردهم المحدودة .

ولم يكن بد أن نتحدث هنا عن طبقات المجتمع العربى ،
وإن كان الإسلام قد محا فروق الطبقات ، فلم يجعل مزية
لواحد من الناس على غيره ، ولا لأبيض من الناس على أسود ،
ولا لعربى من الناس على عجمى . . فهم جميعاً قد خلقوا من
ذكر وأنثى (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند
الله أتقاكم) . ولكن الإسلام حين أقر المساواة بين الناس
وجعلها عنصراً من عناصره لم يغفل ما يختلف فيه الناس من

مواهب ، وما يفترون فيه من استعداد . ومن هنا اختلفت
حظوظهم ، وافترت في الرزق أنصباؤهم (والله فضل بعضكم
على بعض في الرزق) ، ولهذا لم يكن بد من قيام الفقر بجانب
الغنى في كل مجتمع عربي إسلامي ، على أن حقوق هؤلاء على
هؤلاء — مما ضمنته العدالة الاجتماعية في الإسلام — ليس من
سبيلنا في هذا الكتاب .

وإذا كان أحد أبناء البرامكة ، وهو الفضل بن يحيى ، قد
قسم في رأيه الناس إلى أربع طبقات : ملوك قدمهم الاستحقاق ،
ووزراء فضلهم الفطنة والرأى ، وعلية أنهضهم اليسار ،
وأوساط ألحقهم بهم التأدب ، والناس بعدهم زبدٌ جفاء —
فإن مؤرخاً عربياً في القرن التاسع الهجري قد قسم المجتمع
المصرى إلى سبعة أقسام وهم : أهل الدولة من السلاطين
والأمراء ، وأهل اليسار من التجار ، والباعة وهم متوسطو الحال
من التجار ، وأهل الفلح من ذوى الزراعات والحرث وسكان
القرى والريف ، والفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم ،
وأرباب الصناعات والأجراء أصحاب المهن ، وذوو الحاجة
والمسكنة وهم أصحاب السؤال الذين يتكفون الناس ويعيشون
منهم .

ومهما يكن من فرق في التقسيم بين الفضل بن يحيى البرمكى

في القرن الثاني من الهجرة ، وبين المقریزی المؤرخ في القرن التاسع ، فإن حقيقة واحدة تلفت النظر عند الحديث عن طبقات المجتمع العربي ، وهي إغفال المؤرخين للطبقات الفقيرة كأنها لم تكن تكون الكثرة الغالبة من هذه المجتمعات التي كانت تموج بها الممالك الإسلامية ، وكأن أخبارها وأوصافها لم تكن تعني المؤرخ العربي بقدر ما تعنيه أخبار الطبقة التي كان يوجس خيفة منها ، أو يلتمس الزلنى إليها ، أو يبتغي الوسيلة عندها .

ومما يلفت النظر في المجتمع العربي على مر العصور ذلك التفاوت العجيب بين طبقاته ، فبينما كانت الدنانير تنثر نثرًا في قصور الأمراء والتجار ، نرى من الناس من لم تقع عيونهم على الدينار طول حياتهم ، وتروى لنا كتب التاريخ قصة ذلك الصياد الفقير الذي خرج ومعه ولده إلى شاطئ النيل ليصيد سمكًا ، وعليه من خلق الثياب ما لا يكاد يوارى سوءته ، ولم يكن ابنه بأستر منه ثوبًا . . . فرآه أحمد بن طولون سلطان مصر فأخذته عليه شفقة كما تأخذ كرام الملوك شفقة على رعاياهم ، ورقَّ لحاله . . وقال لغلامه « نسيم » : يا نسيم ! ادفع إلى هذا الصياد عشرين دينارًا . فدفعها إليه ولحق مولاه الأمير . ورجع ابن طولون إلى الصياد فوجده ميتًا ، والصبي بجانبه يبكي

ويصيح . . . فظن أن واحداً من غلمانہ السود قتله وأخذ الدنانير منه . . . فوقف بنفسه عليه وسأل الصبي عن أبيه فأجاب قائلاً : هذا — مشيراً إلى نسيم — دفع إلى أبي شيئاً ، فلم يزل أبي يقلبه حتى وقع ميتاً . . . فقال ابن طولون : فتشه يا نسيم ! ففتشه فوجد الدنانير معه كاملة لم ينقص منها واحد . . . فأغرى ابن طولون الصبي بأخذها ، فأبى أن يأخذها قائلاً : هذه قتلت أبي . . وإن أخذتها قتلتني

وقد تقف بنا القصة عند هذا النص الذي يثبت لنا الحرمان حتى من رؤية الدنانير ، والذي يثبت لنا أن فجاءة الغنى قد تقتل كما تقتل خصاصة الفقر . . . ولكننا لا ننسى في غمرة الحزن على هذا الصياد المصرى المسكين أن كرم الأمير المصرى — ابن طولون — ونبل نفسه قد انتقل بالصبي الفقير اليتيم من طبقة المحرومين إلى طبقة المحظوظين . . . فأمر بأن تشتري له دار ، بخمسمائة دينار ، وأن تكون لها غلة تجبس عليه . . على أن الله — وهو أرحم الراحمين — قد جعل في كل بلد إسلامى من الأغنياء من يعطفون على الفقراء ، ولا ينسون أن يؤتوهم مما آتاهم الله من فضيله ، وإذا لم يبلغ ذلك في المجتمعات العربية مبلغ الإحسان المنظم ، كما تفعل جماعات الخير اليوم ، وكما تنهض به جمعيات البر والإحسان في هذا الزمان فإن التراحم

الذى أوصى به الإسلام أهله كان يظهر على كل حال بصورة فردية لو أنها عرفت سبيل التعاون المنظم ما عرفت مجتمعنا العربى على مختلف العصور صور الشحاذة ، وحرف الاستجداء والسؤال ، التى كانت تعج بها المجامع العربية فى كل أرض وتحت كل سماء ..

وكان للشحاذين منذ القرن الأول الإسلامى وسائلهم فى اجتلاب شفقة المحسنين ، واستدراار عطفهم .. كما كان لهم عباراتهم العامية البليغة المؤثرة التى تذيب القلوب ، وتستل الدراهم من « الجيوب » ... كما كان لهم المعانى المبتكرة فى الاستجداء .. تلك المعانى التى لم يتحرج الشاعر أبو تمام من أن يأخذ واحداً منها سمعه من سائل فنظمه شعراً ، وأكمل به بيتاً كان قد أعجزه إكماله ...

ألم ترو لنا كتب الأدب أن أبا تمام لما بلغ فى قصيدته البائية إلى قوله « وأحسنُ من نَوْرٍ يفتحُه الصَّبَا » ، وقف به النظم عند هذا الصدر من البيت يردده .. لأن إتمام المعنى أعجزه ، وإذا سائل يسأل على الباب وهو يقول : من بياض عطاياكم فى سواد مطالبنا . فقال أبو تمام :

وأحسنُ من نَوْرٍ يفتحُه الصَّبَا بياضُ عطايا فى سواد المطالب وهكذا أوحى الشحاذ إلى شاعرنا أبى تمام بالمعنى الذى كان

يطلبه . . . ولم يكن للشحاذين من المضايقات في القرون الأولى في المجتمع العربي ما أصبح لهم في القرون المتأخرة . فهؤلاء أهل دمشق في القرن الثاني يروى « الأبهى » أنهم كانوا يكرمون الفقراء ويلتمسون منهم أن يتقبلوا صدقتهم ويلحفون في ذلك إلخافاً يوهم الرأى أنهم أصبحوا هم السائلين . ثم نراهم في عصر الرحالة ابن جبير يظنون في أنفسهم الظنون حين يعرض الفقراء عن تناول كسرة منهم ، ويقولون : ويحنا ! لو علم الفقير فينا خيراً لتناول من طعامنا . . .

ويلوح أن الشحاذة والاستجداء في الطرقات وعلى أبواب المساجد قد أصبحت وضعاً مسلماً به في المجتمع العربي ، ولكن بعض الفقهاء حاول أن يضع لها آداباً ورسوماً ، فزى الإمام السبكي المصري في القرن الثامن يوجب على الشحاذ ألا يُلحَّ في المسألة ، بل يتقى الله ويحمل في الطلب .

وما يحدث بين الشحاذين اليوم من ربط سوقهم بالجباثر ، أو عصب رؤوسهم بالعصائب إيهاماً بكسر أصابهم ، كان يحدث في مصر المملوكية ، بل روى السبكي أن منهم من يكشف عورته ويمشى عرياناً بين الناس يوهم أنه لا يجد ما يستر عورته . ولم تكن القاهرة وحدها مأوى العرايا من الشحاذين . . . ففي بغداد وفي سنة ٣٦٤ هـ وقف شحاذ أسود على قنطرة من

قناطر النهر يستجدي الناس وهو عريان . . ولما قامت ثورة
العيارين ببغداد في ذلك الحين أخذ ذلك الأسود سيفاً وقاد
جماعة من النهابين وأخذ أموال الناس .

وإذا كنا نسمع عن بعض الشحاذين في زماننا هذا ممن
يقبلون الصدقات وعندهم بيوت للاستغلال ، أو مدخر من
الأموال ، أو نقرأ أن شحاذاً مات عن ثروة ، أو هلك عن
ميراث ، فإن ذلك ليس إلا استمراراً لما كان يحدث في التاريخ
العربي على مر العصور ؛ فإن « خديجة الكليباتية » المصرية
كانت تقبل صدقات المتصدقين وإحسان المحسنين في مصر
قبيل الفتح العثماني ، فلما توفيت سنة ٩١٣ هـ وجد في تركتها من
خالص الذهب ما يقدر بثلاثة آلاف دينار ، ومن الأثاث
ما يقوم بخمسمائة دينار ، وحسبك بذلك ثروة طائلة في ذلك
الزمان . .

• • •

وعلى الرغم من الضيق الشديد الذي كانت تعانيه الطبقات
الكادحة الفقيرة في المجتمع العربي فإن روحاً من الفكاهة أو
المعابثة أو الممازحة كانت تسرى في دخان هذه الطبقات ،
لعلها بذلك تعين أكبر العون على إشاعة البسمة فيهم ، حتى
يتزودوا لعبوسة الحياة بضحكة تجلو صداً القلوب . ولقد

بلغت نواذر السائلين والشحاذين حدًّا صارت تروى معه فى كتب المحاضرات والمسامرات ، حتى اشتهر بعض السؤال — كأبى عون — بالنادرة الحلوة التى لا يضيق بها المسئولون ولا يتبرمون ، وإنما يتقبلونها ويعطفون على صاحبها ، ولا يحرمونه عطاءهم إذا طرق بابهم مرة أخرى . . ألم تحدثنا كتب الأدب والأخبار أن أبا عون هذا سأل رجلاً عطاءه فمنعه الرجل ، فما زال أبو عون يلح على الرجل بالمسألة حتى أعطاه آخر الأمر تخلصاً من إلحاحه . . فرفع أبو عون يديه إلى السماء قائلاً : اللهم آجرنا وإياهم ؛ نسألكم إلحافاً ، ويعطوننا كرهاً ، فلا يبارك الله لنا فيها ، ولا يؤجرهم عليها . . . !

ولقد ألفَ الواجدون والمسئولون فى طبقات المجتمع العربى مضايقة السائلين ومعابثاتهم . . كما ألفوا أن يوسعوا لها صدورهم عملاً بوصية القرآن الكريم (وأما السائل فلا تنهر) . ألم نقرأ أن أعرابياً وقف يسأل على باب بيت . فأجابه رجل من داخل البيت قائلاً : ليس ها هنا أحد ؛ فقال السائل على الفور : إنك لأحد لو جعل الله فيك بركة . . . !

وقد يكون أقصى ما بين السائل والمسئول فى باب الاستجداء أن يطلب الأول العطاء ، فيعطيه الثانى أو يرد عليه قائلاً : أعطاك الله . ولكن قد تطول المناقشة بين الاثنين ثم تنهى

آخر الأمر بنكتة بارعة يقذف بها السائل في وجه المسئول ،
 واثقاً أن الغضب لن يخرج بصاحبنا إلى حد ينسيه أدب الإسلام
 في معاملة السائلين . . وإذا كان القول لا يتأكد إلا بالمثال ،
 فإن الحكاية التالية هي أصدق برهان : وقف سائل على
 باب وقال : تصدقوا علىّ فإنني جائع ، قالوا : إلى الآن لم نخبز
 قال : فكف سويق ، قالوا : ليس عندنا سويق ، قال :
 فشرية من ماء فإنني عطشان ، قالوا : ما أتانا السقاء ، قال :
 فيسير من الدهن أجعله في رأسي ، قالوا : من أين لنا دهن ؟
 فقال يا أولاد ال فما قعودكم هنا في داركم ؟
 قوموا واشحتوا معي !

على أن هذه الروح المعابثة أحياناً ، المتهمكة أحياناً من
 جانب الشحاذين والسائلين ، كان يقابلها من ناحية أخرى
 بعض المعابثة والمفاكهة من جانب الموسرين والمجدودين ،
 وندع هنا رجلاً فقيراً من رجال الحديث في القرن الأول الهجري
 ومن أهل البصرة يحدثنا بعبارته عما حدث له مع امرأة من
 أهل اليسار في المجتمع العراقي ؛ « قال أبو قلابة » المحدث :
 ضقت ضيقة شديدة ، فأصبحت ذات يوم والمطر يجيء
 كأفواه القرب ، والأولاد يتضورون جوعاً ، وما عندي حبة
 واحدة أتقوتها . . فبقيت متحيراً في أمري ، فخرجت فجلست

في دهليزي ، وفتحت بابي ، وجعلت أفكر في أمري ،
ونفسي تكاد تخرج غمماً مما أنا فيه ، وليس يسلك الطريق
أحد لشدة المطر ، فإذا بامرأة على حمار مارة ، وخادم أسود
أخذ بلجام الحمار ، والحمار يخوض في الوحل . . . فلما صار
بحدائي سلم على وقال : أين منزل أبي قلابة ؟ فقلت : هذا
منزله ، وأنا هو ، فسألني المرأة عن مسألة في الفقه ، فأفيتها
بها ، فصادف ذلك ما أحببت ، فأخرجت من خفيها خريطة
دنانير ، ودفعت إليّ منها ثلاثين ديناراً ، ثم قالت : يا أبا قلابة
سبحان خالقك ! لقد تنوق - أي تأنق - في قبح وجهك !
وانصرفت

أليست هذه الفكاهة من جانب المعطى - وهو هنا امرأة -
تقابل المعابثة من جانب السائل فيما ذكرناه قبل هذا بقليل ؟ ؟
ولو أن مؤرخاً عني بدراسة فكاهات الطبقات الفقيرة من
المجتمع العربي لاجتمع له بذلك ثروة من الطرائف تصلح
أن تكون موضوعاً لبحث نفسي عميق . . لقد كانوا يجدون
في اللجوء إلى التندر والمضاحكات هروباً من مرارة واقعهم ،
كما كانوا يجدون في أغانيهم العامية أو في أناشيد الأكرة والفعلة
التي يغنونها مجتمعين راحة لأنفسهم المعذبة . . بل كانوا
يتصيدون النكتة تصيداً حتى لتنفرج أفواههم عن ضحكات

طويلة عميقة يفيدون بها طبعهم المكدود . . ألم يحدثنا المسعودي
 المؤرخ الرحالة أن جماعة من أهل الخراج والقضاء وعلم النحو
 جلسوا يتفكهون في نهر من أنهار البصرة قرب بساتين النخل
 التي كانت مشحونة بالزراع والعمال ممن يعملون في التمر ،
 فيجمعونه ويكبسونه في القواصر ، وهم يمثلون أفقر طبقات
 المجتمع العراقي . فأخذ المتفكهون بأطراف الأحاديث بينهم ،
 وسألوا واحداً منهم — هو أبو خليفة بن الحباب — عن فعل
 الأمر في قوله تعالى (قوا أنفسكم وأهليكم نارا) وكيف يصرف
 للمذكر والمؤنث إفراداً وتثنية وجمعاً ؛ فأجاب أبو خليفة على
 عجل : ق — قيا — قوا — قى — قيا — قين . وكان بالقرب
 منهم جماعة من هؤلاء الأكرة الذين يعملون في التمر ، فلما
 سمعوا ذلك استعظموه ، وقالوا : يا زنادقة ، أنتم تقرأون القرآن
 بحرف الدجاج !

حواء الخالدة

الحوارى والقيان - الحب فى هذا المجتمع - تزين النساء
بائعات الهوى - الراقصات الفاتنات - المرأة الكاملة

لقد كان غاية الرجل من الطبقة المتوسطة فى المجتمع العربى
الجديد أن يسعد بزوجة واحدة ، أما الطبقات الفقيرة فكان
يشيع فيها تعدد الزوجات ، على الرغم من ضيق أسباب العيش
عندها ؛ حتى لقد ألقت المرأة من هذه الطبقة حياة الضرائر ،
واعتادت أن تجتمع مع ضرة أو أكثر تحت سقف واحد . .
أما الطبقات الموسرة وعلى رأسها الأمراء وأصحاب الدولة فكانوا
يجدون فى الحوارى والإماء متاعاً يغنى عن إباحة التعدد فى
الزوجات .

ولا شك أن الفقراء كانوا يَشْتَقُونَ بالزوجات الكثيرات ،
شقاء الأمراء والأغنياء بالحوارى اللائى كن يلعبن بالألباب ،
بل كن يلعبن بالعروش والتيجان .

فهذه « الخيزران » جارية الخليفة المهدي وزوجته ، وأم
ولديه الخليفين موسى الهادى وهارون الرشيد ، بلغت من الجاه
والنفوذ ما لم يبلغه أمير من أمراء البيت العباسى ، حتى لقد

أرادت أن تتدخل في شئون ولدها الهادي وهو خليفة ، فمنعها
 من ذلك ضناً بقدر النساء أن يمتحن في أغراض الملك ، وصوناً
 لخفر الأنوثة أن يخرج إلى بذاذة التبذل . . . وهذه أم الخليفة
 المقتدر وكانت جارية من بنات الروم ، جمعت السلطان في يدها
 حتى خشىها الأمراء ، وارتعد لذكرها الوزراء . . . وهذه الجارية
 الشيرازية « حسن » تولت بنفسها - وعلى يد غلامها - سمل
 عيني الخليفة المتقي . . . وهذه وتلك كثيرات مما ليس المقام
 مقام عدهن .

ولم ينس الشعراء والأدباء واجبهم في الخوض على الاكتفاء
 بالزوجة الواحدة ، وفي التنفير من التعدد الذي لا تصفو معه
 للزوجية حياة . . . فنرى الحكيم أبا العلاء المعري يقول :
 متى تشرك مع امرأة سواها فقد أخطأت في الرأي التريك
 فلو يرجى مع الشركاء خير لما كان الإله بلا شريك
 بل نرى البديع الهمداني قبله بعشرات من السنين يصور
 لنا في مقامته الثانية والعشرين سعادة أحد تجار بغداد بزوجه
 الواحدة ، ويصفها على لسان التاجر مخاطباً ضيفه قائلاً :
 (يا مولاي : لو رأيتهما والخرقة في وسطها ، وهي تدور في
 الدور ، من التنور إلى القدور ، ومن القدور إلى التنور ،
 تنفث بفيها النار ، وتدق بيديها الأبرار ، ولو رأيت الدخان وقد

غير في ذلك الوجه الجميل ، وأثر في ذلك الخلد الصقيل ،
لرأيت منظرًا تحار فيه العيون ، وأنا أعشقها لأنها تعشقني . .
ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته ، وأن يسعد
بظيعته) .

ولعل أطرف وثيقة ، أو أعلى نصيحة تأتي في معرض تعدد
الزوجات هي ما جاء في تلك الخطبة الحكيمة التي خطبها المعز
لدين الله الفاطمي في وفد من شيوخ كتامة المغربية ، فقد
قال لهم بعد تزهيد في اللهو ، وأمر بالعدل ، وحض على الخير ،
حتى يتصل في الناس الجميل : « وأقبلوا بعدها على نسائكم ،
والزموا الواحدة التي تكون لكم ، ولا تشرهوا إلى التكثر منهن
والرغبة فيهن ، فيتنغص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ،
وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف نحائزكم ،
فحسب الرجل الواحد الواحدة » .

* * *

كان الجوارى يعرضن على الراغب في شرائهن قبل أن يبدو
له الرأي فيهن . فلم يكن الشراء إلا عن معاينة ، وقد تتعرض
الجارية لامتحان دقيق ، فتارة تختبر في عقلها وذكاؤها وفطنتها
وبديهيتهما وما إلى ذلك من محاسن الخلق . . وتارة تمتحن في
جسمها خشية أن يكون النخاس قد زور فيه شيئاً ليستر فيه

عيباً ، أو يخفى فيه قبحاً . . . ويصف لنا أديب عربى هؤلاء
النخاسين المزيفين بقوله : « وكم من مرة جعلوا العين الزرقاء
كحلاء ، وحمروا الحدود المصفرة ، وسمنوا الوجوه المقعقة ،
وأعدموا الحدود شعر اللحي ، وأكسبوا الشعور الشقر حالك
السواد ، وجعلوا الشعور السبطة ، وبيضوا الوجوه المسمرة ،
ودملجوا السيقان المعركة وأذهبوا آثار الوشم والحدري
والنمش والحكة » .

على أن أغلب ما يكون ذلك فى أسواق الرقيق التى كثيراً ما
كان ينطلى فيها الخداع ، وتغير فيها المعالم ، وتفعل الأصباغ
والدهون والطيوب والشعر المستعار أفعالها أما الجوارى
القاتنات فكن يجلبن إلى الخلفاء والأمراء والأغنياء جلباً ،
فإذا وقعت الواحدة منهم فى نفس رائيها من هؤلاء بذل لها من
الثلث ما نستعظمه اليوم ، بل كان يستعظمه الناس فى تلك
الأزمان . . حتى لقد بلغ ثمن الجارية التى اشتراها ابن رائق
أمير العراق فى الربع الأول من القرن الرابع الهجرى ١٤ ألف
دينار ، كما بلغ ثمن « بصبص » جارية المهدي العباسي
— الذى اشتراها وهو ولى عهد — ١٧ ألف دينار .

ولقد اشترى المهدي هذه الجارية على الوصف لا على المعاينة



جارية يعرضها تجار الرقيق للبيع

وعلى الأخبار لا على الاختبار . . ولم يجد في ذلك كثيراً ولا عظيماً .

ولم يكن المهدي هو الوحيد بين أهل الدولة الذي تعشق تجارية على السماع . . . ففي القرن الثامن الهجري أولع السلطان الناصر قلاوون ب تجارية لم يرها ، ولكنها وصفت له ، فاشتراها صاحب « ماردين » بعد أن بذل لصاحبها الرغائب . . ولكنها وقعت في قلب صاحب ماردين ، فاحتجزها لنفسه وشغف بها حباً ، وضمن بها على السلطان الناصر . . فأنكر عليه السلطان ذلك ، وأمره أن يحملها إلى مصر ؛ فحمل صاحب ماردين تجارية غيرها مع مملوكين من مماليكه ، فلم يخف ذلك على السلطان الناصر ، وردّ الثلاثة مع الرسول محملاً إياه تهديده ووعيده بأن صاحب ماردين إذا لم يبعث التجارية المقصودة فسيخرب السلطان ماردين على رأسه . . !

وقد نفع الوعيد ، وأثمر التهديد ، فحملت التجارية المطلوبة بعد أن لم يكن من سبيل إليها إلا ركوب الأسنة . . . وهو مركب وخيم !

* * *

ولقد لعب الجوارى والقيان دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية وفي المجتمع العربي ، منذ اللحظة التي قامت فيها دولة للرقيق ،

فقد كان لمن سحر خاص يؤثر في القلوب ، ولم ينج من أخذ
 سحرهن كثير من الخلفاء والسلاطين والأمراء والأغنياء . أما بناء
 الدول من الخلفاء فقد كانوا عنهن راغبات ، لما في المشغلة بهن
 من توهين دعائم الملك . كان معاوية لا يلتفت إليهن ، وكان
 أبو جعفر المنصور مشغولا عنهن ببناء دولته ، وكان عبد الرحمن
 الداخل تهدي إليه الجارية الفاتنة فيردها ، حتى لا يدع للهو
 سبيلا إلى قلبه . أما العاكفون على شهوات النفوس فقد وجدوا في
 الجوارى والقيان سبيلا إلى إشباع رغائبهم ، فمن أراد الجمال ،
 أو الصوت الجميل ، أو ظرف الطباع أو لئذاذة الرقص التمس
 كلا من أولئك عند جارية يهواها . وقد عرف هؤلاء الجوارى
 مكانهن في المجتمع العرني الحديد فتدللن ... وعشن بالقلوب ،
 وخادعن في الود ، لأن القينة منهن كما يقول الجاحظ « مكتسبة ،
 ومجبولة على نصب الحبال والشرك للمتر بطين ، ليقعوا في أنشوطتها »
 وقد حذق هؤلاء القيان صناعة الإغراء . ورسالة الجاحظ فيهن
 من أطرف ما يُقرأ وألذ ما يسمع ، فليرجع إليها من شاء من
 حضرات القراء .

وكان الأمراء والكبراء يتهادون بالجوارى ، كما يتهادى الناس
 في كل عصر بالطف الأشياء ، ولم لا تُتهدى الجارية وهي
 سلعة تباع ، وعرض يعرض في الأسواق ويقوم بأغلى الأثمان ؟

على أن أغرب ما في إهداء الجوارى هو ما كان يفعله بعض سيدات البلاط العباسي من إهداء أزواجهن الخلفاء عدداً من الجوارى المغنيات وغير المغنيات لكي يشغل بهن الخليفة عن جارية معينة تغار منها امرأته وتود بجدع الأنف لو خلصت منها فلا تجد سبيلاً إلى ذلك إلا شغل زوجها عنها بهذه الهدايا الجميلة ! وقد صنعت ذلك زبيدة امرأة الرشيد العباسي حين وقع في حب الجارية الفاتنة « دنانير » التي كانت في حوزة جعفر البرمكي والتي كلف بها الرشيد كلفاً شديداً . .

وقد أخفقت السيدة زبيدة أن تحمل زوجها على الرجوع عن هذا الحب الذي أفسد عليها سعادتها ، فلم تجد من حيلة لذلك إلا أن تهدي إليه عشر جوارٍ منهن « مارية » أم ولده المعتصم ، و « مراجل » أم ولده المأمون . وبذلك انشغل الرشيد عن الوقوع في هوى « دنانير » .

* * *

ولقد بلغ من أثر الجوارى والقيان في المجتمع العربي ، وخاصة في العصر العباسي ، أن الشعراء شغلوا بهن ، وصارت الجارية شيطانة جديدة للشاعر العربي فوق الشياطين التي كنا نسمع عنها في العصر الجاهلي ! فهذه الجارية الجميلة الشاعرة الرقيقة « عنان » لها أحاديث لذيذة مع الشعارين مروان بن أبي حفصة ؛

وأبى نواس . وهذه الجارية الحلوة الظريفة « فضل » ، كانت
تخالط شعراء زمانها من أمثال البحتري ، وابن الجهم ، وابن
الرومي فذهبت في الشعر كما يذهبون ، وكان لها من جياذ المعاني
في الشعر ما لا يملك معه السامع نفسه من النشوة والحزة ، كقولها :
لأكتمن الذي بالقلب من حرق حتى أموت ولم يعلم به الناس^١
ولا يقال شكا من كان يعشقه إن الشكا لمن تهوى هي الياس
ولا أبوح بشيء كنت أكتمه عند الجلوس إذا ما دارت الكاس
وكانت ليالى بغداد على الخصوص في القرنين الثالث والرابع
تهمس في ظلامها أنغام مما ترسله مجالس اللهو والشراب والغناء
في قصور الخلفاء والأمراء ؛ بل كانت بيوت المقيمين — أو
تجار القيان — مجمعاً طيباً يلتقي فيه رواد السمر ، وعشاق
السهر ، من الكبراء والوزراء والأدباء والشعراء . . فنرى
« الناطقي » البغدادي — وكان من كبار المقيمين — يفتح داره
كل ليلة ، وعنده الجارية « عنان » فما يزال السمار يلهون
ويقصفون ويسمعون ، وما تزال « عنان » تبدهم بخاضر الجواب
وتبهرهم بإجازة الشعر ، وتأخذهم بحلاوة الحديث ؛ حتى ليشهد
لها الشاعر الفحل مروان بن أبي حفصة بأنها أشعر الإنس والجن .
ولاضير أن أدعوك يا قارئ العزيز إلى سهرة في بيت « الناطقي »
لنسمع شهادة الشعر التي منحها الشاعر مروان للجارية

الشاعرة « عنان » . .

لقي الناطقي مرة الشاعر مروان بن أبي حفصة فدعاه إلى بيته ،
ولبي الشاعر الدعوة ، وانطلق مع صاحبنا إلى دار كانت من
دور بغداد المعروفة بلياليها المجلوة كأنها ليالى العروس . . ودخل
الناطقي إلى جاريته عنان قبل ضيفه ، فقال لها : يا عنان !
جئت بك بأشعر الناس مروان بن أبي حفصة ، وكانت تشكو في
تلك الليلة علة فقالت : إني عن مروان في شغل . . فأهوى
الناطقي عليها بالسوط وأذن لمروان بالدخول ، فدخل والجارية
تبكي ، والدمع ينحدر من عيناها ، فلم يلبث أن نطق بهذا
البيت من الشعر :

بكت عنان فجري دمعها كالدر إذ ينسل من خيطه
فقالت الجارية مسرعة :

فليت من يضربها ظالماً تجف يمناه على سوطه !
فقال مروان : أعتق ما أملك إن كان في الجفن والإنس
أشعر منها . .

ولن أبلغ بك في دار الناطقي وفي مجلس عنان أكثر من هذا
المبلغ ، أما ما وراء ذلك مما كان يدور في هذه المجالس فإني
أرجو أن أعفى نفسي وأعفيك من ذكره ، مخافة أن يشغلنا

حديث اللهو واللذات ، عما نحن بسبيله من حديث العصور
والذكريات .

* * *

وقلَّ أن تجد في المجتمع العربي بعد عصور المخالطة بالأعاجم
وبعد انطلاق الشهوات إلى حد لم يكن للمسلمين به عهد - قل
أن تجد المواقف العفيفة من فتیان الحب العفيف ؛ وقل أن
تجد هؤلاء الشبان الذين لم تعلق بهم ريبة فيما يضربون فيه من
أمر العشق والهيام . وقلَّ أن تجد أيضاً هؤلاء القيان اللاتي لم
يحببن الفاحشة . فذلك طراز من الناس قد اختفى مع العصر
الإسلامي الأول . وأين من أحاديث الحب اللاهي في العصر
العباسي حديث ذلك الفتى الأموي « عمرو » الظريف الذي كان
من ولد عثمان ، والذي روى المسعودي المؤرخ خبره فيما يرويه
من طرائف الأخبار ؟

كان « عمرو » الأموي هذا يختلف إلى قينة لبعض قریش ،
وكان كل منهما يحب صاحبه ، ويكتم ذلك الحب فلا يعلم
صاحبه من أمره شيئاً . فالجارية تحب الفتى وهو لا يعلم ،
والفتى يحب الجارية وهي لا تعلم . وكل منهما يخفي في نفسه من
الحب لصاحبه ما لا يجد معه سبيلاً إلى المعالنة به . ولم تكن محبة
القوم إذ ذاك لريبة أو لفاحشة .. فأراد الفتى أن يبلو من الجارية

مثل الذى يبلاوه فى نفسه . فقال لبعض من عنده : امض بنا إليها ، فانطلقا ووافاهما وجوه أهل مدينة الرسول من قریش والأنصار وغيرهما ، وما كان فيمن حضر ذلك المجلس ففى يجد بها وجده ، ولا كانت صاحبتنا تجد بواحد منهم وجدها بالأموى . . فلما أخذ الناس مواضعهم ، قال لها الفتى :
أتحسنين أن تقولى :

أحبكم حباً بكل جوارحى فهل عندكم علم بما لكم عندى
أتجزون بالود المضاعف مثله فإن كريماً من جزى الود بالود
قالت : نعم ، وأحسن منه . وقالت :

للذى ودنا المودة بالضعف ف وفضل البادى به لا يجازى
لو بدا ما بنا لكم ملاً الأثر ض وأقطار شامها والحجازا
فعجب الفتى من حذقها مع حسن جوابها ، وجودة حفظها
فازداد كلفاً بها ، وقال :

أنت عذر الفتى إذا هتك الستة ر وإن كان يوسف المعصوما
وبلغ خبرهما عمر بن عبد العزيز ؛ ولعله ضن بمثل هذا المثال
النادر للحب العفيف مع الفطنة وذكاء القلب ، فاشتري الجارية
بعشر حدائق ، ووهبها للفتى بما يصلحها ، فأقامت عنده حولا
ثم أدركها الموت ، فحزن عليها أبلى الحزن ، ورثاها ، ولم
يستطع أن يعيش بعدها ، أو يطيق صبراً على فراقها ، فمات

بعد قليل ، وضم قبر واحد جسديهما معاً . . . أليست هذه التوضيحية في الحب الشريف مما لم نعد نسمع به في العصور المتأخرة ؟ ثم ألا يستحق هذا العاشق الوحيد في طرازه أن يبكي عليه الباكون ، وأن يبلغ الوجد عليه من « أشعب » الطامع المازح مبلغ الجحد فيقول فيه : هذا سيد شهداء الهوى . . ؟

* * *

وما دمننا في معرض الحديث عن المرأة — حواء الخالدة ، حرة وجارية — أفلا نجد أنفسنا مسوقين إلى الحديث عن زينتها وحليها وكل ما تحاول أن تجعل به شكلها ، وتبدي به محاسنها ؟ وما بنا حاجة إلى أن نذكر أن التبرج كان من ظواهر المجتمع العربي في أول ظهور الإسلام ، ولم يكن ذلك إلا امتداداً لمظاهر من الجاهلية الأولى ؛ وقد نهى الإسلام عنه نهياً قاطعاً في قوله تعالى (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) .

أما الزينة فقد أباحها الإسلام في قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده) وقوله (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) . إلا أن الإسلام جعل لزينة المرأة حدوداً في قوله تعالى (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدین زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمُرهن على جيوبهن ولا يبدین زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن

أو آباء بعولتهن أو أبناءهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن
 أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نساءهن أو ما ملكت
 أيماهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين
 لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم
 ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم
 تفلحون .

وعلى هذا الأدب الإسلامى والخلق القرآنى فى الزينة وإبدائها
 كانت المرأة العربية فى الأيام الأولى للإسلام ، إلى أن اختلط
 العرب بأهل البلاد المفتوحة ، وأخذوا من أسبابهم فى الحياة
 وطرائقهم فى الملبس وغيره ما كانت تذهب معه نفس الخليفة
 أبى بكر حسرات وهو على فراش الموت يوجه الخطاب إلى من
 حوله من أصحاب رسول الله قائلًا : (والله لتتخذن نضائد الديباج
 وستور الحرير ، ولتألن النوم على الصوف الأذرنى ، كما
 يألم أحدكم النوم على حسك السعدان) . نعم لقد كان أبو بكر
 يشفق على المسلمين أن يصرفهم الترف عن طريق القوة ، وأن
 يصابوا من داء الرفاهية بما تلين به أجسامهم ، وتطرا جنوبهم ،
 ويخرج كيانهم ، فيجدوا فى مس الصوف ما يجرح أديمهم
 كما تجرح الشوكة الجسد .
 ولقد صحت نبوءة الخليفة الأول ، وما كذبت فراسته . . .

فقد غطى الترف على كل ناحية من نواحي المجتمع العربى حتى كانت الموجة عامة . وافتننت المرأة فى لباسها وزينتها افتناناً لم يألفه العرب فى يوم من الأيام ، وحمل الجوارى من الفرس أولاً ، ومن الروم ثانياً موجة التجميل والتزين . وكان كل ما تحمله الجارية على جسمها مثاراً لفتنة ترتطم فيها عواطف العرب . . حتى ذلك الوشاح الذى يحول فى صدرها ، وتلك العصابة التى تأتلق على جبينها . . . فنرى « عنان » الجارية تكتب على عصابتها باللؤلؤ : إذا لم تستح فاصنع ما شئت ! . ونرى « طرفة » جارية النطاف تكتب على عصابتها بالذهب : ليس فى الحب مشورة ! ونرى جارية الخليفة المتوكل تكتب على عصابتها هذين البيتين :

إذا خفنا من الرقباء يوماً تكلمت العيون عن القلوب
وفى غمز الحواجب مغنيات لحاجات المحب إلى الحبيب

ولم يقتصر أمر هذه العبارات الغزلية الرقيقة على كتابتها على العصائب والخمر والبراقع والأطرزة ، بل جاوز الجوارى ذلك إلى الكتابة بالمسك والغالية على الحبين والحدود . ولم تكن هذه الكتابة فى شئ من الوشم البغيض الذى ساد فى الطبقات الوضيعة زماناً ، ولكنها نوع من الوشى الحبيب الذى كان يختلب الألباب اختلاباً . فهذه « مهج » الحميلة جارية إسحاق ابن إبراهيم الموصلى رآها الشاعر على بن الجهم داخله فى بيت

مولاهما وقد كتبت على أحد خديهما بالغالية :
 من يكن صبا وفيها فعناني في يديه
 وعلى الخلد الآخر
 خذ مليكى بعناني لا أمانعك عليه

* * *

وليس عندنا من النصوص ما نستطيع أن نتبين به زى المرأة العربية المقصورة في بيتها والتي لم تتبدل كما تبدل فتيات الموالى في حياتهن اللاهية الجديدة على المجتمع الإسلامى ، أما المرأة البدوية فأغلب الظن أنها لم تتبدل حياتها كثيراً عن حياة سابقتها قبل الفتوح العربية إلا بالقدر الذى يفرق بين الجاهلية والإسلام. ومهما يكن من أمر فإن النقاب ظل ملازماً للمرأة العربية المسلمة على مر العصور ، ولا تزال بقية من الراقع والخمر في مصر وفي غيرها من الأقطار العربية . وعجيب أن يكون للنقاب والخمار العربى فتنة عند نساء مدينة بالرمو «بصقلية» المسيحيات. فقد رآهن الرحالة ابن جبير الأندلسى فى القرن السادس الهجرى وفى ليلة من ليالى عيد الميلاد عند الأوربيين فوصفهن قائلاً : «وزى النصرانيات فى هذه المدينة زى نساء المسلمين ، فصيححات الألسن ، ملتحفات منتقبات ، خرجن فى هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب ، والتحفن للحف الرائقة ،



سيدة عربية تقدم لها خادمتها قلة الماء

وانتقبن بالنقب الملونة ، وانتعلن الأخفاف المذهبة ، وبرزن
لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين ،
من التحلى والتخضب والتعطر ، فتذكرنا على جهة الدعابة
الأدبية قول الشاعر :

إن من يدخل الكنيسة يوماً يلق فيها جاذراً وظباء «
ومن هذا النص الذي أوردناه للرحالة ابن جبير نعرف أن
النقاب الذي كان نساء « صقلية » ينتقبن به تشبهاً بالمسلمات
القاطنات معهن في الجزيرة كان ذا ألوان ، فلم يكن موحد
اللون ، على أن الخمر - جمع خمار - الملونة كانت طرازاً سائداً
في القرن الهجري الأول ، وكانت بعض المدن تؤثر بعض الألوان
على بعض . ويظهر أن الخمار الأسود كان يصنع ويروج في
مدينة الكوفة في ذلك العصر البعيد ، على حين لم تقبله أذواق
النساء في مدن أخرى . . . ألم يذكروا أن تاجراً من أهل الكوفة
قدم « المدينة » بنحمر ، فباعها كلها وبقيت منها السود فلم تلق لها
سوقاً نافقة ، وكان هذا التاجر صديقاً للشاعر الدرامي ، فشكا
ذلك إليه ، فقال له الشاعر : لا يبلغ بك الهم ! فإنني سأنفقها
لك ، حتى تبيعها كلها ، ثم قال :

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا صنعت براهب متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه حتى وقفت له بباب المسجد

وتغنى بعض المخنين بهذا الشعر ، وشاع في الناس ، فأغرى النساء بلبس الخمار الأسود . . فلم تبق في المدينة ظريفة إلا ابتاعت خماراً أسود ! حتى نفذ ما كان مع العراقي منها . . ! وهكذا نجح الشعر في الترويج والدعاية لشيء من أزياء النساء على نحو ما تصنع « الإعلانات » في أيامنا هذه . . .

* * *

ولقد وجدت الجواهر والأحجار الكريمة والمعادن الثمينة سبيلها إلى قلب المرأة العربية وعقلها . . ولا عقل للمرأة أمام الجواهر . . فافتنت في التحلى بها ، وفي ترصيع جسمها وثيابها بحبات منها ، ولقد كثرت اللآلئ والدرر والألماس في أيدي العرب الفاتحين ، ووقعوا من نفائس ملوك الفرس والكرد والروم على ما لا يحصى كثرة ، وما لا عهد لهم به في صحراء أجمل ما فيها من الحجر هو « الجزع » الذي يشبه به الشاعر عيون الوحش في قوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا ، الجزع الذي لم يثقب وكأن فتح العرب لبلاد الفرس كان فتحاً عظيماً لكنز مخبوء لم تقع العيون على مثله ، حتى لقد يبدو الحديث عن ذلك الكنز وجواهره ولآلئه نوعاً من أحاديث السحر وقصص الخرافة ؛ ولكنه كان حقيقة دهش العرب الفاتحون لها ، وبهتوا منها ،

ولم يدرك بعضهم قيمتها ، ولا عرفوا مقدارها ، حتى ليحدثنا مؤرخ ثقة أن عربياً أصاب في يوم افتتاح « المدائن » بفارس حجراً كبيراً من الياقوت تصل قيمته - لو قوم - إلى حد كبير ، فلم يعرف صاحبنا قيمته ولم يدر قدره ، وباعه لبعض الناس بألف درهم ، وعاد من الصفقة بأقوى الظن أنه حصل على ربح عظيم . . . ثم علم - بعد لأي من الزمن - أن الحجر بيع بالثمن البخس ، وأنه كان يساوى أضعاف ذلك المبلغ الذي حصل له من بيعه . فلما أخذ أصحابه يلومونه على غفلته وتفريطه كان جوابه أقبح من غفلته حيث قال : لو عرفت عدداً أكثر من الألف لطلبته . . .

ولكن الناس بعد ذلك عرفوا من الأعداد ما وراء آلاف الألوف . . . وعرفوا من الجواهر أسماءها الجديدة عليهم ، وعرفوا مكانها العزيز من تيجان السلاطين ، وخزائن الخلفاء ، وعقود النساء ، وعصائب الجوارى ، وأيدي القيان ، وأرجل الحسان . . . فأقبل الأغنياء على شرائها ، وبذلوا لها من الأموال ، ما نظنه من ضروب الخيال . . . فاشترى الرشيد فصاً من الياقوت الأحمر بأربعين ألف دينار . . . ولم يكن الرشيد في هذا الثمن مغالياً ولا مبالغاً ولا مخدوعاً . . . فإن هذا الفص كان له شهرة تاريخية وقيمة أثرية ، صانته الملوك من

الأعاجم ، وتداولته الدولات ، فاحتازه هرون الرشيد لكي
يحمل به مملكته . . . ونقش عليه اسمه .

ورأينا في العصر العباسي ، وفي عهد الرشيد بالذات ،
« علية بنت المهدي » ابنة الخليفة السابق ، وأخت الخليفة القائم
تبتدع في التحلى بالجواهر بدعة لم يعرفها النساء من قبل . . .
فقد كان في جبينها عيب — وهو فضل من السعة — يسمح معه
جمال وجهها وحسن خلقها ؛ فأرادت أن تستر هذا العيب ،
وأن تخفي هذه السعة في الجبين باتخاذ العصائب من الحرير ؛
ولكن ذلك لم يكن كافياً ليرضى غريزة المرأة في التجميل ،
فاتخذت العصائب المكحلة بالجواهر واللاآلى . وهذا أحدثت
في التزين النسوى شيئاً ما رأت أحسن منه فيما أحدثه النساء .

ولم تستقر الجواهر الكريمة على رؤوس النساء زمناً طويلاً حتى
جاءت زوجة الرشيد هذه المرة — لا أخته — فأنزلت اللاآلى
من علياء مكانها على جباه النساء ، إلى الأقدام ، ورأيناها تأمر
— وأمرها المطاع — أن ترصع خفافها — وهى مطية الرجلين —
بالكريم من الأحجار وشاعت البدعتان في قصور
الأمراء والوزراء والأغنياء ، وسرت هذه « المودة » في أرفع
طبقات المجتمع العربى في ذلك الزمان . . .

وأصبحت الجواهر ونفائس الأحجار شيئاً جديداً في المجتمع

الإسلامي الحديد ، يحتاج إلى الدراسة والخبرة والمعرفة ، حتى
اشترطوا في الكاتب - وهي صناعة كثيراً ما أدت إلى الوزارة -
أن يكون عارفاً بصيغات الجواهر وخواصها وأثمانها ومبلغ نقاستها .
فربما جرى ذكر شيء من ذلك في حضرة سلطانه فتكون معرفته
أبعث على رفعة محله ، أو ربما احتاج إلى وصف هدية صدرت
عن الملك أو وصلت إليه ، فلا يخطئ الوصف ، أو لا يحسن
التعبير .

وأخذت المجتمعات العربية على م العصور تزيد معرفتها
بالأحجار الكريمة ، فيعرفون صحيحها وزيفها ، وخالصها
ومغشوشها ، واختص الصانع في قطعها وصقلها وترصيعها في
الذهب وغيره ونقشها ، وأصبح مألوفاً في أسواق بغداد ، والقاهرة
ودمشق والمغرب وخراسان وغيرها من العواصم والأقطار الإسلامية
أن يسمع الناس ويروا اللؤلؤ ، والياقوت ، والبلخش ، وعين
الهر ، والألماس ، والزمرد ، والزبرجد ، والفيرودج ، والدهنج ،
 والمرجان ، والباد زهر . . .

* * *

ولا نترك الحديث عن - حواء الخالدة - في المجتمع العربي
من غير أن نلم إمامة قصيرة بالرقص والغناء لما للمرأة من كبير
الصلة بهما ، وإن كان هذان الفنان غير مقصورين على النساء

وحدهن . . . فإننا نجد في المغنين من الرجال أسماء طويس ، وابن سريج ، ومعبد ، والغريص ، والموصلي ، وغيرهم ممن نقلوا أصول الغناء من الفارسية إلى العربية ، كما نجد في الراقصين من الرجال أسماء « كبيش » ، و « عبد السلام الراقص » و « إسحاق ابن إبراهيم الموصلي » وغيرهم من رجال العصر العباسي . ولا يختص العصر العباسي وحده بالراقصين من الرجال ؛ فإن صاحب كتاب الضوء اللامع يروي لنا خبر حيدر بن أحمد الرومي الأصل وأخيه إبراهيم الشاب الظريف اللذين وفدا على مصر في عهد السلطان المملوكي الأشرف برسباني ، ونبغا في الموسيقى والرقص ، وانتهت إلى إبراهيم الرياسة في الرقص في عصره . إلا أن رقص هذين كان فيه من التواجد والهيام وشطحات التصوف ما لا نجده في رقص إسحاق الموصلي الذي رقص طرباً في حضرة الخليفة الواثق فشهد له بكمال الصنعة .

فإذا جدت بنا الرحلة من المشرق إلى الأندلس ، رأينا الأندلسيين يطربون للرقص ، ويعجبون برقصة الفتيان ، ونسمع شاعراً من شعراء ذلك الفردوس الإسلامي الضائع يصف غلاماً راقصاً بقوله :

ومنزع الحركات يلعب بالنهي لبس المحاسن عند خلع لباسه
متأوداً كالغصن وسط رياضه متلاعباً كالظبي عند كناسه

بالعقل يلعب مقبلاً أو مدبراً كالدهر يلعب كيف شاء بناسه
ويضم للقدمين منه رأسه كالسيف ضم ذبابه لرياسه
ويدنا البيت الأول من هذا الشعر الأندلسي الرقيق أن الراقص
كان يخلع ثيابه عند الرقص ، ويتجرد من لبس ما يعوق حركاته
ولعل الراقصات كن أكثر تجرداً من ذلك ، كما نراه في زماننا
هذا .

وقد امتلأت رقاع المملكة الإسلامية شرقاً وغرباً بالراقصات
وكثر ذلك منذ العصر العباسي حيث أتاحت الطفرة الجديدة في
الاجتماع ألواناً من لذات العيش ومتاعه لم تتح من قبل .
فنرى بغداد وقد غصت بالراقصات المشهورات ، ونرى أن
رقصة « الكرج » أو (Chevaux de Bois) قد شاعت في هذه
العاصمة المترفة ثم انتقلت منها إلى بقية العواصم ، ونرى المؤرخ
ابن خلدون يصف هذه الرقصة التي تعتمد على آلات تسمى
الكرج ، وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب ، معلقة
بأطراف أقبية ، يلبسها النسوان ، ويحاكين بها امتطاء الخيل ،
فيكررن ، ويفررن ، ويثاقفن . ثم نرى فوق ذلك أن بعض
المدن الإسلامية تشتهر بالنساء الراقصات ويكون لها في ذلك
فضل مزية على غيرها ، فيروى لنا مؤرخ أن مدينة « أبدة »
الأندلسية كان فيها الرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة .



رسم راقصة على قطعة خزفية من العصر الفاطمي

ولا يرتجل المسلمون الرقص حين يجعلونه ضرباً من ضروب
لهوهم ، وإنما يضعون له القواعد ، ويقيمون له الرسوم ، ويحكمون
الصناعة فيه ، ويجعلون له من الشروط ما يجعله مؤثراً في الطباع
محبوباً عند الرؤية ، خفيفاً في نظر المشاهد . فاشتروا في
الراقصة خفة الروح ، وحسن الطبع على الإيقاع ، وكثرة
التصرف ، وثبات القدمين ؛ كما اشتروا في خلقها طول العنق
والسوالف ، ودقة الخصر ، وتناسب الخلق ، ولطافة الأقدام ،
ولين الأصابع والمفاصل ، وسرعة الانفتال ، وحسن الدل ،
وتمايل الأعطاف .

ونرى الراقصات من جهتهن يحسن - في خلال الرقص -
التعبير عن معاني الغرام بما يناسبها من الحركات والإشارات ،
كتدلّل الحبيب ، وتوله المحب ، وثقل الرقيب . وتشير الراقصة
بأناملها إلى أعضاء جسمها ، كأنما تدل على ما أصابه كل
عضو من الوجد ، أو ما لقيته كل جارحة من الضنى . . . فإن
ذكرت الدمع أشارت بأناملها إلى عينها ، وإن ذكرت حرق
الصباية أشارت إلى قلبها . ويشير إلى ذلك الشاعر ابن حمديس
الصقلي الأندلسي بقوله :

وراقصة بالسحر في حركاتها تقيم به وزن الغناء على حد
منعمة ألفاظها بترنم كسا «معبداً» من عزه ذلة العبد

تدوس قلوب السامعين برحمة بها لقطت ما للحنون من العد
 بقدم يموت الغصن من حركاته سكوناً وأين الغصن من نزهة القد
 وتحسبها عما تشير بأنمل إلى ما يلاقى كل عضو من الوجد
 بنا لا بها ما تشتكى من جوى الهوى

وأدمع أشواق مخددة الخلد

على أن أكثر ما كان يستهوى الشعراء من الراقصة هو
 تلك الخفة التي تطأ بها قدماها الأرض ، وتلك السرعة في
 الحركة ، وذلك اللين في الأعضاء كأنما كل عضلة من
 جسد لها طوع يديها . . . كما يقول الشاعر جمال الدين الفارقي :
 لله راقصة تميل كأنها ظل القضيب إذا تمايل مزهرا
 تغدو وترجع كالخيال فلا ترى حركاتها إلا كطارقة الكرى
 لانت معاطفها فكيف تلفت وتفلت لا يستطيع بأن ترى
 ولعل راقصة لم يخف وطؤها على مكان الرقص كمثل التي
 وصفها الشاعر على بن أبي اليسر بقوله :

هيفاء إن رقصت في مجالس رقصت

قلوب من حولها من حذقها طربا

خفيفة الوطء لو جالت بخطرتها

في جفن ذي رمد لم يعرف الوصبا . . .

فقد بلغ من خفة حركاتها أنها لو جالت وخطرت في جفن

رجل أرمم العينين ما اشتكى ألماً ، ولا أحس وصباً . . .
 وللشعراء في هذا الباب كثير ، لو أخذنا فيه نخرجنا عن
 غرضنا في هذه الملامح . . .

* * *

وفي غمار هذا العالم المملوء بالفتنة والإغراء ، وفي خلال تلك
 الحياة الصاخبة الغارقة في اللهو ، وعلى هيب تلك الشهوات
 العارمة التي وجدت لها سبيلاً سهلاً حتى إلى قصور الخلفاء ،
 فلم يعد للدين ذلك الوازع القوي الذي كان يوحى إلى علي بن
 أبي طالب أن يخاطب الدنيا فيقول : « يا دنيا غري غري !
 إلى تعرضت؟ أم إلى تشوقت؟ » ويوحى إلى الخليفة عمر بن
 الخطاب فيبكي من خشية الله حتى تخضل لحيته . . . وفي ذلك
 الجو الخانق الذي كانت تنفس فيه عاصمة عربية كبغداد أيام
 العباسيين ، وكالقاهرة أيام الفاطميين ومن بعدهم من السلاطين.
 نرى أن بيوتاً للإثم تقوم ، ودوراً للدعارة تشيد بين بيوت الأحرار
 والحرائر . ونرى النساء الساقطات يقمن هذه البيوت باسم الدولة
 وفي حمايتها . . ونرى المواخير والحانات في عصر الرشيد والمأمون
 والمعتصم والمتوكل تنقلب إلى دور للدعارة في العصر البويهي وفي
 أيام « عضد الدولة بن بويه » بالذات . ثم يقر ذلك الوضع الشاذ
 الغريب في بلد إسلامي كالعراق الفارسي ، وترسم على هذه البيوت

ضريبة تدخل حصيلتها إلى بيت المال . . . ثم تنتشر العدوى إلى مصر الفاطمية - والشر دائماً سريع الانتقال - فترى صاحب كتاب « الخطط » يشير إلى بيوت الفواحش التي كانت تجبي عليها الرسوم ، ويضمن تحصيلها ضامن ، تحت يده عدة صبيان وعليها جند مستقطعون وأمراء ؛ وكانت تشتمل هذه الضريبة - أو يشتمل تحصيلها - على ظلم شنيع ، وفساد قبيح ، وهتك قوم مستورين ، والهجوم على بيوت أكثر الناس ؛ وكان يختلط في تحصيل رسوم الدعارة الشريف مع غير الشريف ، ويستوى في شرور جبايتها الخبيث والطيب . وصدق الله وهو أحكم القائلين في كتابه الكريم : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) .

ومما يدل على إقرار الفاحشة في مصر الفاطمية والأيوبية والمملوكية قول المؤرخ المقرئ في موطن آخر من خططه : « ومقرر ما على كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة ، فيؤخذ من كل ذكر وأُنثى مقرر معين » .

ولكن هذا الوضع الشاذ الغريب في أمصار إسلامية وفي مجتمع عبي مهمما قيل في اختلاط أجناسه - هذا الوضع قد برم به جماعة من المسلمين الغيُّر على آداب الدين ، وضاقوا به ذرعاً ، وأجمعوا على أن يغيروا هذه المناكير بأيديهم ، وبهذا

قامت فتنة الحنابلة في مدينة بغداد سنة ٣٢٣ هـ وعلى رأسهم زعيمهم أبو محمد البرهاري ، فكبسوا الدور ، وأراقوا دنان النييد حيث وجدوها ، وضربوا المغنيات حيث لقوهن ، وكسروا آلات الغناء حيث رأوها ، وكانوا يعترضون كل رجل يمشى مع امرأة في الطريق فيقومونهما إلى دار الشرطة ويشهدون عليهما بالفاحشة ما لم يخبر الرجل عن المرأة التي معه ، مخافة أن تكون من مشيعات الفحشاء . ولكن هذه الثورة قد أخذها بدر الخرشني صاحب شرطة بغداد في سرعة وحزم مخافة أن تنقلب إلى شر كبير .

ومهما يكن من أمر تلك الثورة الحنبلية على الفحشاء والمنكر في بغداد ، ومهما قيل في مجافاتها لروح النظام القائم في الدولة فإنها على كل حال كانت صوتاً قوياً من أصوات الاحتجاج على قلب الأوضاع في المجتمع العربي في القرن الرابع . وهي حملة تذكرونا بتلك التي حملها الإمام ابن تيمية في مصر والشام في القرن الثامن الهجري لما رآه من انحلال المجتمع الإسلامي في عصره وبعده بعداً كثيراً عن الحياة المثالية الرفيعة للإسلام والمسلمين . على ما بين الحملتين من فرق كبير في الأسلوب .

ألوان من الناس

بعض أصحاب المهن والصناعات - القضاة -
القصاصون والشعراء - الحواة والمشعوذون . . .

لقد كانت الصناعة في البادية العربية قبل الفتوح تقوم على الضرورى من أسباب العيش ، ولم تكن الحياة عندهم معقدة إلى الحد الذى يقتضى قيام مهن كثيرة وصناعات متعددة ، ولم تزد الحرف على أكثر مما يوائم حاجاتهم البسيطة ومجتمعاتهم المبعثرة فى الصحراء . فلما فتحوا الأمصار وخططوا المدن الكبرى ، وأنشأوا العواصم والحواضر انجذب الناس نحوها وعمروها ، واقتضى العمران أن تقوم الحرف والصناعات التى تستطيع أن تستجيب بحق إلى رغبات هذا المجتمع الحديد . وأخذت قصبات الخلافة الجديدة تنمو وتزدهر ويزدحم السكان فيها وحولها . وأصبحت للمجتمع الحديد النامى مطالب من العيش فيما يتصل بالطعام والشراب واللباس والأثاث والزينة . وقامت الحوانيت الكثيرة تعج بها المدن لتلبى حاجات كل محتاج . ولم يعد الخبز - مثلاً - وهو قوام الحياة تصنعه المرأة العربية فى بيتها كما كانت تصنعه البدوية بيديها وعلى ملتها . .

بل وجدنا الأفران العامة تقام في المدن ، تارة في الدروب والأحياء ، وطوراً في أطراف البلد ، ورأينا من عمل المحتسب في الدولة أن يراقب هذه الأفران ، ويأمر بإصلاح مداخنها ، ويتعاهد جرف الدف - وهو لوح العجين - حتى لا يلصق عليه ، ويكلف الخباز بتمييز خبز كل واحد بعلامة - كما يصنع الفرنون في زماننا هذا - لئلا يختلط الجميع . ويظهر أن بعض الفرنين في مصر كانوا يشون السمك مع الخبز على بلاطة واحدة ، ولهذا جعل المحتسب ملاحظة ذلك من واجبه حتى لا يسيل شيء من دهن السمك على الخبز فيغير رائحته وطعمه .

وقامت بجانب هذه الأفران الكبيرة أفران صغيرة لصناعة الفطائر والزلابية ، ولا ننسى تلك الصورة الطريفة التي صور لنا فيها الشاعر ابن الرومي سرعة صانع الرقاق وخفة يده في قوله :
ما أنس لا أنس خبازاً مررت به

يدحو الرقاقة وشك اللحم بالبصر

ما بين رؤيتها في كفه كرة

وبين رؤيتها قوراء كالقمر

إلا بمقدار ما تنداح دائرة

في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

ولا ننسى كذلك صورة قالى الزلابية فى وقت السحر التى
صورها الشاعر بقوله :

رأيتُه سحرًا يقلى زلابية

فى رقة القشر والتجويف كالقصب

يلقى العجين لحيناً فى أنامله

فيستحيل شبابيكاً من الذهب

وهنا نرى المحتسب يقوم بعمله ، فيلاحظ رجاله نوع
الدقيق أو السميد كما يلاحظون الدهن أو الزيت الذى يقلى
به ، ويراقبون مقلى الزلابية الذى كان يشترط فيه أن يصنع من
النحاس الأحمر الجيد .

وكان لألوان الطعام المهيأ وغير المهيأ حوانيت خاصة بها ،
فبائع اللحوم المشوية كان يسمى شواء ، وبائع الرءوس والأكارع
كان يسمى رواساً ، وصاحب المطاعم كان يسمى طباخاً ،
وبائع الأمعاء المحشوة (السجق) يسمى نقانقياً ، وبائع
الهريسة يسمى هرائسياً .

ولم تسلم هذه الأطعمة من الغش الذى كان من عمل
المحتسب أن يكشفه ويؤاخذ أصحابه عليه . وكانت طرقهم فى
الغش مما يحير العقول ، ولكنها لم تخف على المحتسبين الذين
كانوا يعرفون فنونها ويبالغون فى العقوبة عليها . ففى القرن السادس

المجري ، وفي مصر والشام ، كان الرواسون يخلطون رءوس المعز
بالضأن ، وكان الطباخون يخلطون لحوم الإبل مع لحوم البقر ،
وكان النفاقيون يغشون النفاق فيحشونها باللحوم الواقعة الهزيلة ،
وكان الحلوانيون - أو بائعو الحلوى - يغشونها بطرق كثيرة ،
فمنهم من يمزج عسل النحل برُبّ الكرم ، ومنهم من يمزج عسل
القصب بعسل التمر .

وإذا كنا اليوم نميز أنواع اللحوم المذبوحة بعلامات مميزة
تسمى الأختام ، فكل من لحوم الضأن والأبقار والإبل سمات
خاصة بها تسميها إدارات المذابح قبل تداولها في الأسواق ،
فإن ذلك التمييز ليس جديداً على مجتمعاتنا الحديثة ؛ فقد
شاهد العراق والشام ومصر ذلك من بضعة قرون . . . حيث
كانت لحوم المعز تنقط بالزعفران لتمييز من غيرها من اللحوم
وقد كان للمحتسب وعرفائه ، والموظفين تحت يديه ،
سلطان كبير على الأطعمة ، وكان يتسع اختصاصه في
ملاحظتها والرقابة عليها إلى حد بعيد ، وكان من حقه أن يختبر
الحلوى وهو واقف بباب بائعها ليعرف غشها بما اجتمع لديه
ولدى عرفائه من وسائل المعرفة والخبرة ؛ فلم يكن في تلك
الأيام « معمل كيميائي » للتحليل وبيان الفساد والغش في
المأكول والمشروب ؛ وإنما كان المحتسب نفسه معملاً متنقلاً



دكان من دكاكين القاهرة في أول القرن التاسع عشر

للتحليل بالوسائل المعروفة في عصره . ويروى لنا عبد الرحمن
 الشيزرى كيف كان المحتسب يعرف اللحم عند الجزار أو
 القصاب إن كان مذبوحاً أم ميتة . فهو يلقيه في الماء ، فإن
 رسب فيه فهو مذبوح ، وإن لم يرسب فهو ميتة . كما يروى
 لنا طريقة الكشف عن البيض المذر - أعنى الفاسد - بأن
 يطرح في الماء ، فإذا كان مندرّاً طفا على وجه الماء ، وإذا كان
 صحيحاً رسب .

وكان مألوفاً جداً في حوانيت الطعام والماء كل أن يقف الناس
 على أبوابها انتظاراً لتهيئتها ، فلا يجد الناس بأساً أن ينتظروا
 دقائق تسوى فيها الفطيرة ، أو تقلى الزلابية ، أو يشوى اللحم .
 ولكن منظرّاً كان يثير العجب في القاهرة الفاطمية والأيوبية
 وهو منظر النسوة وهن جالسات على أبواب القطانين - أو
 المنجدين - ساعات طويلة ينتظرن أن يفرغ القطان من ندف
 القطن لفصل البذور عنه ، وكثيراً ما كان يتعمد الرجل من
 هؤلاء القطانين أن يطيل الزمن في عملية ندف القطن حتى
 يتمتع بوقت أكثر مع النساء صاحبات القطن ويقضى في
 التحدث إليهن وقتاً طويلاً . . .

ولم تستأثر حوانيت القطانين بهذه الظاهرة التي كان يفطن
 المحتسب إليها للقضاء عليها ، بل كانت حوانيت الكتانين

والبزازين والصاغة مجتمعاً طيباً مزدحماً للنسوة اللائى كن يقضين
فى هذه الحوانيت زمناً طويلاً .

وفى أوائل القرن التاسع عشر زار القاهرة مستشرق إنجليزى
هو المستر إدوار وليام لاين ، وطاف بكثير من ألوان المجتمع
فيها ، ولم يفته أن يحول جولة بين حوانيت القاهرة ليشهد ما يباع
فيها وطريقة المجتمع القاهرى فى البيع والشراء ؛ ولم يفته بالطبع
أن يلاحظ مناداة الباعة على ما يبيعون بعبارات تغرى النفس
بشراؤها والإقبال عليها ؛ فينادون على الحمير بهذا النداء الجذاب :
« حمير يا غنبل » ؛ وينادون على الترمس بقولهم : « ترمس امبابة
يغلب اللوز » ؛ وينادون على البرتقال بقولهم : « عسل يا برتقال
عسل » ! وينادون على أزهار الحناء بهذه العبارة الجميلة
المسجوعة : « روايح الجنة يا تمر حنة ! »

والآن وقد جلنا جولة سريعة بين ألوان من الخلق تجمعهم
حاجات العيش من مطعم ومشرب وملبس ، أفلا يجدر بنا أن
نتنقل بين المجتمع لنرى كيف كان يفصل فى خصوصياته ،
ويحكم فى منازعته ؟ ولنخالط بعض المخالطة هؤلاء القضاة
الذين يبدأ عهدهم فى الإسلام بالنبي عليه السلام الذى يقول
فيه ربه : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) .

ولم يبدأ تعيين القضاة في المجتمع العربي الحديد إلا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب حين ولى بعض الصحابة قضاء المدينة والبصرة والكوفة ومصر . وعلى الرغم من بساطة مظاهر هؤلاء القضاة الأولين وعدم إحاطتهم بالرسوم والتقاليد التي دخلت نظام القضاء في عصور متأخرة فإنهم كانوا يختارون من أعلم الناس وأفقههم وأكثرهم تديناً وأشدهم ميلاً إلى الحق ومراعاة النصفة .

وعلى الرغم من هيبة القضاة الأولين واحترامهم في مجالس قضائهم فقد كان يسمح للمتخاصمين أن يراجعوهم بتلك الصراحة والشجاعة الأدبية التي حاول الإسلام أن ينميها في قلوب المسلمين . فلقد رووا أن « توبة الحضرمي » كان متلاًفاً مبذراً لماله ، لا يملك شيئاً إلا أنفقه ووصل به إخوانه ، فلما ولى قضاء مصر في زمن هشام بن عبد الملك بدا له رأى أن يحجر على المبذر في ماله ، وشاءت الظروف أن يرفع إليه غلام كان لا يبتى من ماله على شيء ، فقال له توبة : أرى أن أحجر عليك ؛ فقال الغلام : ومن يحجر عليك أيها القاضي ؟ والله ما نبلغ في أموالنا عشر معشار من تبذيرك .

ولم يكن مجلس القضاء يعقد في مكان خاص مستقل به كما هو الشأن اليوم ، وإنما كان القاضي يجلس في منزله للحكم

أولاً ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى القضاء في المساجد . وفي العصر العباسي نجد القضاة يشتد نفوذهم فلا يعقدون مجالس القضاء في حضرة الوالى ، ولكننا نرى الوالى — وهو ممثل الخليفة السياسى ونائبه — ينتقل بنفسه ليحضر مجلس القاضى . وقد بلغ من اعتداد بعض القضاة بأنفسهم ومراكزهم أنهم لم يكونوا يقومون من مجلسهم تحية للوالى أو الأمير إذا دخل .

وكانت هيئة المحكمة تنعقد بقاض واحد لا يجلس معه أحد ، وأذكر أن صاحب البريد حاول أن يجلس بجوار أحد قضاة مصر فى عصر المأمون ، فأخرجه القاضى من مجلسه قائلاً : هذا مجلس أمير المؤمنين ، وليس لأحد أن يجلس فيه إلا بإذنه . وكان مجلس القضاء يشهد كل يوم للقضاء ألواناً من الناس يعرضون شكواهم ، ويتقدمون برقاع فيها أسماءهم وأسماء خصومهم ويناولون هذه الرقاع إلى كاتب القاضى ، الذى يناولها بدوره إليه .

ولم يكن القاضى أول الأمر يتميز بزي مخصوص أو علامة خاصة ، فلباسه لا يختلف عن لباس العلماء والفقهاء فى وقته ، إلا أن الدولة الفاطمية فى مصر رسمت للقضاة أزياء وعمائم خاصة ، ومراكب من البغال النفيسة المساوية فى قيمتها للعتاق من الخيل .

وكانت رتبة القاضي في مصر الفاطمية أجل رتب أرباب
 العمام وأرباب الأقلام ، وكان يجلس يوم السبت والثلاثاء من
 كل أسبوع في الزيادة التي أضيفت إلى جامع عمرو بن العاص
 على طراحة ومسند من الحرير ، وبين يديه خمسة من الحجاب
 وأربعة من الموقعين ، ويملى القلم الذي يكتب به من دواة محلاة
 بالفضة محمولة إليه من خزائن القصور الفاطمية وموضوعة على
 كرسي خاص يسمى كرسي الدواة .

وكانت بغلة القاضي الشهباء من المشاهد التي تراها القاهرة
 الفاطمية في شوارعها ودروبها ، ولا يركب البغال الشهب من
 أرباب الدولة غير القاضي ؛ وهي مسرجة بسرج ثقيل محلي ،
 ورائه دفتر من الفضة مبطن بالحرير .

وقد اتخذ الفاطميون للقضاء رسوماً وتقاليد في جلسة القاضي
 وزيه ونوابه وحجابه وتصرفه ومجلسه ووقفه والخصوم والشهود أمامه ؛
 وكانت هذه الرسوم تراعى في دقة وضبط ، فلا يسمح بالإخلال
 بها بحال من الأحوال .

وكانت عمام القضاة في مصر الفاطمية والأيوبية والمملوكية
 تتميز باتخاذها من شاشات كبار غاية الكبر ، وكان بعضهم
 يرسلون بين كتفيهم ذؤابة يبلغ بها الطول أن تصل إلى قربوس
 سرج الدابة . . . ومنهم من يتخذ الطيلسان الفائق ، ويلبس

فوق ثيابه دلقا متسع الأكمام طويلها مفتوحاً . ولما صار لكل مذهب من المذاهب الأربعة قاض خاص به رأينا أن هيئة ملابسهم ، وشكل عمامتهم يختلف باختلاف مذاهبهم ، حتى يتميز القاضى الحنفى مثلاً من قاضى الشافعية .

وفى العصر المملوكى بمصر نرى أن قاضى القضاة يجلس فى دار خاصة بالقضاء هى دار العدل ، بعد أن أصبحت المساجد مكاناً غير ملائم للفصل بين الناس فى منازعاتهم ، ومن ذلك الحين أصبحت للقضاة دور خاصة ، إلى أن وجدنا المحاكم على اختلافها من شرعية وأهلية ومختلطة تبنى لها أبنية خاصة . ورأينا فى العصر المملوكى أن السلاطين أنفسهم كانوا يجلسون فى مجالس القضاء مع القضاة باعتبارهم أولياء الأمر الشرعيين الذين يستمد القضاء منهم ولاية القضاء . . وقد كان السلطان الظاهر بيبرس ، والأشرف بن قلاوون والناصر محمد بن قلاوون يجلسون للقضاء وعن يمينهم قضاة المذاهب الأربعة ، وعن يسارهم كاتب السر وناظر الجيش وجماعة من الموقعين ، فيكونون شبه دائرة .

ولم يكن جلوس سلاطين الممالك للقضاء شيئاً غريباً ولا جديداً على المجتمع العربى ، ألم يجلس المأمون العباسى يوماً للقضاء ، فتقدمت إليه امرأة عليها هيئة السفر وفى ثياب رثة ،

فأخذت تشكو إليه في شعر مؤثر رقيق أوله :
ياخير منتصف يهدى له الرشد ويا إماماً به قد أشرق البلد
فلم تكد تفرغ منه حتى رد عليها بشعر يعلنها فيه بنظر
مسألها في جلسة مقبلة قائلاً :

والمجلس السبت إن يقض الجلوس لنا
ننصفك منه وإلا المجلس الأحد
ثم ينعقد مجلس القضاء يوم الأحد — كما تذكر تلك
الرواية الأدبية الشائقة — فينتصف لها المأمون من خصمها وولده
العباس . . .

وكثيراً ما كان يلجأ القاضي إلى عمل مما يشبه المباحث
الجنائية اليوم وهو في مجلسه بالقضاء ؛ ألم يختصم رجلان إلى
القاضي إياس بن معاوية وهو قاض على مدينة البصرة لعمر بن
عبد العزيز ؛ وكانت الخصومة على مطرف خز ، وأنبيجاني
— والأنبيجاني أنجس قيمة وأحط نوعاً من الخز — فادعى كل
واحد منهما أن مطرف الخز له ، وأن الأنبيجاني لصاحبه ،
فدعا إياس بمشط وماء ، فبل رأس كل واحد منهما ، ثم قال
لأحدهما : سرح رأسك ؛ فسرحه ، فخرج في المشط عفر
المطرف ، وفي مشط الآخر عفر الأنبيجاني ، فقال القاضي :
يا خبيث ! الأنبيجاني لك ! فأقر صاحبه بذلك ، ودفع مطرف

الخرز إلى صاحبه .

ولم يكن في القضاة الأولين - أعني في العصور الأولى للإسلام - تزمت ولا تنطع ، على الرغم من هيبتهم وجلالتهم وإجلال المجتمع لهم ؛ فكانوا في الأعم الأغلب ناساً من الناس يمازحون بما لا يخرج بالزاح إلى كثرة منه تميت القلب ، ويتندرون بما لا يسقط كرامتهم أو يخل بمروعتهم وهيبتهم ؛ بل كان في بعضهم من بدهاة الفكر ، وسرعة الخاطر ولطف الحجاج والمخاطرة ما يفحم به أحد الخصوم .

فقد أتى رجل إلى صاحبنا إياس القاضي وسأله : هل ترى عليّ من بأس إن أكلت تمرّاً ؟ قال : لا ، قال : فهل ترى عليّ من بأس إن أكلت معه كيسوما ؟ قال : لا ، قال : فإن شربت عليهما ماء ؟ قال : جائز ، قال السائل : فلم تحرم السكر وإنما هو ما ذكرت لك ؟ . قال إياس : لو صببت عليك ماء هل كان يضرك ؟ قال : لا ، قال : فلو نثرت عليك تراباً هل كان يضرك ؟ قال : لا ، قال : فإن أخذت ذلك فخلطته وعجنته وجعلت منه لبنه عظيمة فضربت بها رأسك هل كان يضرك ؟ قال : كنت تقتلني ! قال : فهذا مثل ذاك . . .

على أن أعجب ما أخذ به خصم فأصبح محكوماً عليه بعد

أن كان طالباً للحكم له ، هو ذلك الدرس القضاء البديع الذي أعطاه أبو حازم قاضي الخليفة المعتمد لرجل جاء أمامه ، يقاضي أباه ويطالبه بدين له عليه ، فأقر الأب بالدين ، وأراد الابن حبس والده . فقال القاضي : هل لأبيك مال ؟ قال ابنه : لا أعلمه ، قال : فخذ كم دايته بهذا المال ؟ قال : منذ كذا وكذا ، قال القاضي : قد فرضت عليك نفقة أبيك من وقت المداينة . . . فحبس الابن ، وخلى سبيل الأب .

ولم تذكر لنا كتب الأدب والتاريخ اسم ذلك القاضي الظريف بمدينة البصرة ، الذي أحضر رجل امرأته أمامه لخصومة بينهما ، وكانت المرأة حسنة إذا انتقبت ، قبيحة إذا أسفرت عن وجهها — أي أن برقعها كان يخلع عليها شيئاً من الحسن ويخفي شيئاً من القبح ، فقال القاضي لها على زوجها ، وقال : يعتمد أحدكم إلى المرأة الكريمة فيتزوجها ثم يسيء إليها ! ففطن الرجل لميل القاضي نحوها . . . فقال : أصلح الله القاضي ! قد شككت في أنها امرأتى ؛ ففرها تسفر عن وجهها ليستبين لي ، فوقع ذلك بوافق من القاضي الذي قال لها : أسفري رحمك الله ؛ فسفرت عن وجه قبيح كان يستره النقاب . . فقال القاضي لما نظر إلى قبح وجهها : قومي عليك لعنة الله ! كلام مظلوم ووجه ظالم !

ولعلها نادرة من تلك النوادر التي وضعها الواضعون في
عصور من المجتمع العربي ، ليتهاقلها الناس ويسمروا بها ،
أو لعلها واقعة تصور لنا بعض ما كان عليه بعض قضاة تلك
الأزمان . . .

* * *

وما دام القول قد بلغ بنا إلى النوادر والأسمار التي كان
يسمر بها الناس في مجتمعاتهم فلا بأس أن نخرج قليلا على جماعة
من الناس كانوا قد وقفوا أنفسهم على حكاية الأخبار والنوادر
والمصاحك ، ولم يخل منهم مجتمع عربي منذ القرن الرابع
الهجري ، حتى لقد كانت تزدهم بهم المساجد والطرقات
والدروب . وكان يجتمع إليهم الرجال والنساء فيبذلون لهم من
الأموال ما جعل هذه الصناعة حرفة مربحة لأصحابها . . . هؤلاء
هم القصاص أو القصاصون الذين كان عملهم في القرون الثلاثة
الأولى للإسلام تذكير الناس ووعظهم بقراءة القرآن لهم لما فيه من
أحسن القصص ، وبحكاية قصص الأنبياء التي كان يجد
الناس في الاستماع إليها مرضاة لنفوسهم . ولهذا لم يكن هناك
خرج بادئ الأمر أن يجلس القاضي في المسجد يعظ ويذكر
ويدعو ويقرأ القرآن ، ولا يتجاوز ذلك من ذكر الأخبار
والأساطير الدينية والنوادر التي أصبحت فيما بعد عمل القصاص

الأول . وقد استمر القصاص بمعناه الدينى والوعظى قائماً فى ديار المسلمين إلى عصور متأخرة ، فنجد الإمام السبكى — وهو من علماء مصر فى القرن الثامن — يذكر القاص ويعرفه بأنه هو الذى يجلس فى الطرقات يذكر شيئاً من الآيات والأحاديث وأخبار السلف . ويشترط فيه أن يقول ما يفهمه العامة ويشتركون فيه من الترويح فى الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، ولا يتعمق معهم فى أصول الدين وفنون العقائد ، وأحاديث الصفات الإلهية فإن ذلك — عند الإمام السبكى — يجرهم إلى ما لا ينبغى .

أما القصاصون الذين سلكوا طريق الحكايات والنوادر ، فخرجوا بالقصص الدينية عن غرضها الوعظى ، فقد اتجهوا إلى تسليية العامة وبعث لذة الاستماع فيهم عن طريق اختراع الحكايات ، وخلق الأساطير ، وإضفاء الخيال على قصص الأنبياء والسالفين حتى يجد فيها المستمعون ما يثير اهتمامهم . ولما اتجهت القصص هذا الاتجاه الفنى الذى لا يساير أغراض الدين ، ولا يرضى رجاله رأينا الخلفاء يمنعون القصاص من القعود فى المساجد ، ضنا بحرمة بيوت الله أن تكون مجتمعاً للهو والتسليية .

وقد بلغ من عبث هؤلاء القصاص بعقول العوام واستخفافهم

بهم أنهم كانوا يحتالون على جمع المال منهم بأي طريق ، وقد قسموا أنفسهم إلى معسكرات تتفق في النهاية على أخذ المال من السامعين مهما اختلفت مذاهبهم ؛ فقد كانوا يقعدون في الأسواق العراقية في القرن الرابع ، فيذكر فريق منهم فضائل علي بن أبي طالب ليرضوا المستمعين من الشيعة ، ويقص فريق منهم فضائل الصديق أبي بكر ليرضوا أهل السنة من سامعيهم ، وفي النهاية يخرجون من هذه الصفقة الماكرة والحيلة المدبرة بأوفى نصيب ..

ويروى لنا صاحب « مروج الذهب » حكاية « ابن المغازلي » الذي كان ببغداد في عصر الخليفة المعتضد العباسي ، فكان يتكلم على الطريق ، ويقص على الناس بأخبار ونوادر ومضحك ، ويثنى عليه المسعودي ويصفه بنهاية الخدق في صناعته ، فلا يستطيع من يراه ويسمع كلامه أن يمسك نفسه من الضحك . ولقد وقف ابن المغازلي يوماً على باب الخاصة بقصر الخلافة يضحك الخدم بذكر حكاياتهم .. فأعجب خادم بحكايته ، وشغف بنوادره ، وذهب إلى الخليفة المعتضد يذكر له نبأ هذا القاص البار ، ويصف لمولاه إبداعه في تقليد الأعرابي والمكي والتركي والنحوي والزنجي وما إليهم من ضروب الخلائق .. ويصف للخليفة نوادر القصص بأنها تضحك الثكول ، وتصيب

الحليم . . فلم يملك المعتضد نفسه من أن يستدعى إليه ابن المغازلى ليوقف بنفسه على براعة قصصه ، وجودة مضاحكه ؛ وفي الحق أنه استطاع — بعد جهد جهيد ، وبعد صفعات موجعة ، وبعد برودة من المعتضد القاسى السفاك للدماء — أن يضحك المعتضد حتى جعله يفحص الأرض برجليه من شدة الضحك .

ولم يكن المعتضد العباسى هو الخليفة الوحيد الذى استمع إلى قصاص كبير كابن المغازلى ، ففي القرن الحادى عشر الهجرى — وبعد فتح السلطان سليم العثمانى لمصر بقرن من الزمان — نرى السلطان أحمد الأول العثمانى يستمع فى قصر الخلافة بالقسطنطينية إلى الشيخ داود العطار أو المناوى القصاص المصرى الذى كتب قصة « حرب العجم » أو « لعب النار » ليصور بها الحرب الصليبية التى وقعت حوادثها فى مدينة الإسكندرية فى القرن الثانى عشر الميلادى ؛ وكان داود العطار هذا من شيوخ القصاص فى مصر العثمانية ، وقد رأس فريق خيال الظل المصرى الذى سافر إلى عاصمة بنى عثمان ليشارك فى حفلات زواج الوزير التركى محمد باشا من كريمة السلطان أحمد .

ولسنا اليوم بسبيل دراسة للقصص الشعبية ورجالها ، فذلك

يبعد بنا عن هدفنا من تسجيل ملامح خاطفة لصور من المجتمع العربي . ولكن أمراً لا ينبغي إهماله هنا ، وهو أن هؤلاء القصاص قد لفتوا أنظار المستشرقين الذين بدأوا يطأون بلاد الشرق العربي منذ اتصل الشرق بالغرب ، سواء أكان ذلك في العصور الوسطى ، أم في العصور الحديثة ، ولم يفت الدكتور جوستاف لوبون وهو يزور مصر والشام وبلاداً من الشرق العربي في منتصف القرن التاسع عشر أن يشير إلى هؤلاء القصاص ، وأن يعد قصصهم العجيبة من أهم وسائل التسلية عند المجتمع العربي ، وخاصة عند ما سمع أحدهم في حي من أحياء مدينة يافا الفلسطينية ، نضر الله ذكريات ماضيها الجميل . . .

ولقد وصف رائد آخر من رواد الشرق العربي في العصور الحديثة منظر احتشاد جماعة من العرب حول قصاص بارع ، أخذ يلعب بعقولهم ، وينتقل بهم من موقعة إلى موقعة ، فجعلهم وهم في نشوة من تواجد السماع يخيل إليهم أنهم في حرب حقيقية وأنهم بين صفوف الجند المقاتلين ، وأمام مشهد الأبطال المحاربين فإذا أزمّت الأمور في حرب قصصية رأيت أنفاسهم تنقطع ، فلا يستردونها إلا إذا نقلهم القاص إلى مشهد جديد . . .

على أن هؤلاء القصاصين والمحاكين لم يكونوا الوسيلة الوحيدة

للتسلية في المجتمع العربي ، فقد ذكر لنا المؤرخ ابن خلدون
 براعة المصريين في تعليم الحمر الإنسية والحيوانات العجم
 والطيور مفردات من الكلام والأفعال يستغرب حدوثها ، ويعجز
 أهل المغرب عن فهمها ؛ ويقول عما بلغه أهل مصر في ذلك إنها
 عاية لا تدرك . وكان هؤلاء العارضون للحيوانات المعلمة المدربة
 يقيمونها للمشاهد في الأسواق ، والأماكن العامة والطرق ،
 فيجتمع الناس حولها ليشهدوا عجائب أفعالها ويسمعوا غرائب
 من مفردات أقوالها . وكان هؤلاء العارضون يجمعون من هذه
 المشاهد أموالا تعد من وسائل كسبهم . وكانت سهولة التقليد
 من هذه الحيوانات ترجع إلى أصول طبائعها من ناحية ، وإلى
 براعة المدربين لها من ناحية أخرى ؛ فكان القرد أخف هذه
 المشاهد تقليداً بحكم طبعه ، وكان الحمار الأليف أعجبها وأشدّها
 إثارة للدهشة بحكم ما تعرف من غبائه ولعل صاحب
 المعزة والكلب والقرد اليوم هو بقية مما كان يجري في مصر في
 العصر المملوكي وشهده ابن خلدون

بعض الأمكنة في بعض الأزمنة

البيوت - القصور - الشوارع والدروب - الحمامات -
الفنادق - السجون - المدارس - ستنابات إلخ

قل أن يقع قارئ التاريخ الإسلامى على وصف يشقى
النفس للبيوت التى كان يسكنها عامة الناس وأوساطهم على مر
العصور ، فلقد كان الإغفال نصيب هذه البيوت غالباً كما
كان نصيب أصحابها :

وإذا نظرت إلى الديار وجدتها تشقى كما تشقى العباد وتسعد
على حين لا تكاد تخلو كتب التاريخ والحضارة والخطط
من وصف القصور التى افنت فيها الرياضة العربية الإسلامية
منذ غادر العرب مضاربهم وخيامهم فى الصحراء إلى أن تأنقوا
فى تشييد الدور ، وجلبوا لها من ألوان الذوق فى البناء ، والترف
فى الأثاث ما يكاد يظنه المرء ضرباً من الخيال .

وتبدو لنا أول موازنة بين البيت البدوى المبسط وبين القصر
المنيف من قول زوج الخليفة معاوية الأموى حين نقلها من
البادية إلى عاصمة الخلافة الجديدة :
لبيت تخفق الأرياح فيه أحب إلى من قصر منيف

ولن نطيل القول في قصور الخلفاء بدمشق وبغداد والقاهرة
 وقرطبة وغرناطة وغيرها من حواضر الإسلام ، غير أن أعمدة
 الرخام المزخرفة في قصر الوليد بن عبد الملك بدمشق ، وبرك
 الزئبق في قصر الطولونيين بمصر ، وبركة الرصاص التي يجري
 حولها نهر من معدن الرصاص المجلو أحسن من الفضة في
 قصر الخليفة المقتدر بالله العباسي ببغداد ، وقصر الزهراء بقرطبة
 الذي بناه عبد الرحمن الناصر وأودع فيه من عجائب البناء
 والهندسة ما يحير العقول ، وقصر الحمراء في غرناطة الذي بناه
 أحد ملوك بني الأحمر وأنشأ فيه بركة السباع التي تربض في
 وسطها أسود من الرخام تجم الماء من أفواهها على شكل جميل -
 هذه الحفنة من القصور الساحرة الموزعة في بقاع المملكة
 الإسلامية على عصور مختلفة تجلو لنا كيف بلغ العرب في
 حضارتهم مبلغاً يرينا في جلاء ووضوح فرق الانتقال ، والتبدل
 من حال إلى حال .

ولقد بلغت قصور العباسيين فوق فخامتها وضخامتها مبلغاً
 من السمو والارتفاع ، الذي صورته لنا الشاعر البحرى وهو
 يصف قصر «الكامل» الذي بناه الخليفة المعتز بالله بن المتوكل ؛
 فالبحرئى يزعم لنا في خيال شعرى جميل أن الحمام قد ذعر وهو
 يترنم فوق ذلك القصر الشاهق ، لأنه أطل من أعلاه فرأى



سقاؤون يحملون الماء على ظهورهم وعلى ظهور المظاري

منظراً هائلاً خطر المزلة ، بعيد المنحدر .

وأحمد الظن في القارئ الكريم أنه لا يضيق بالأبيات الحميلة
التي قالها البحري في صفة ذلك القصر ، فإن إيرادها هنا بنصها
أحفظ لنا من حلها بالنثر ، وأبين في جلاء الصورة التي نريد
أن نعرض بها قصراً بغدادياً في القرن الثالث الهجري . قال :

لما كملت روية وعزيمة	أعملت رأيك في ابتناء الكامل
وغدوت من بين الملوك موفقاً	منه لأيمن حلة ومنازل
ذعر الحمام وقد ترنم فوقه	من منظر خطر المزلة هائل
رفعت لمخترق الرياح سموكه	وزعت عجائب حسنه المتخايل
وكأن حيطان الزجاج بجوه	لحج يمجن على جنوب سواحل
وكأن تفويف الرخام إذا التقى	تفويفه بالمنظر المتقابل
حبك الغمام رصفن بين منمر	ومسير ومقارب ومشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه	نوراً يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن في ذي رونق	متلهب العالي أنيق السافل

* * *

ويبدو أن البيوت في بعض البلاد العربية كانت تميل إلى
العلو والارتفاع لتكونها من طبقات بعضها فوق بعض ؛ فقد
كانت مدينة الإسكندرية مثلاً في القرن السادس الهجري تمتاز
بعلو دورها علواً لفت نظر الرحالة ابن جبير الأندلسي ،

حتى ليقول في وصفها : « ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ، ولا أعلى مبنى » . وقد أصدر ابن جبير حكمه على الإسكندرية وهو وافد إليها من الغرب قبل أن يدخل القاهرة التي كانت تكون دورها من طبقات تصل إلى الثمانية ؛ وكانت كل دار تزدهم بالسكان الذين قد يبلغون في البيت الواحد مائتين . إلا أن الفسوط كانت تصل فيها طبقات البيوت إلى أربع عشرة طبقة كما ذكره الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زار مصر في القرن الخامس الهجري وفي العصر الفاطمي ، وأقام فيها بضعا من السنوات مكنته أن يسجل بدقة وملاحظة كل ما رآه في مصر الفاطمية .

ولم يفقد البيت العربي — على اختلاف الزمن بأحواله وانتقاله — تلك الروح الكريمة المضيافة التي بثها العرب الفاتحون في أبنائهم المنتشرين في كل أرض ، والتي كانت أعز ما ورثته البادية إياهم ، على أن هذه الضيافة كانت تختلف تبعاً لما يطرأ على الناس من ظروف الحياة والبيئة ، إلا أنها لم تعد أن تجد لها مظهراً حتى حين أنشئت الفنادق وخصصت لنزول المسافرين فيها . ولا ندعى أن الضيافة العربية في البيوت التي شيدها الحضارة الإسلامية كانت تبلغ من المثالية النادرة تلك الروح التي تحدثنا بها النوادر والأخبار عن أمثال حاتم

الطائى الذين كانوا يقدمون للضيف أعز ما يملكون ، وينحرون
 الناقة السمينة الكوماء التى لا يملكون فى البيت غيرها خشية أن
 ينحروهم أعداؤهم إذا رموهم بالبخل . لاندعى ذلك ولكننا نؤكد
 — مستقرئين كثيراً من الأمثلة — أن الكرم كان سائداً فى البيوت
 العربية من أيام الأمويين فى دمشق حتى أيام العثمانيين فى
 القاهرة ، بل نجد صوراً من الضيافة الكريمة فيما كتبه المستشرق
 «إدوار وليام لاين» عن القاهرة القرن التاسع عشر . وإذا كان
 العرب يكتنون عن الكرم بكثرة الرماد إشارة إلى كثرة الطبخ التى
 تستلزم كثرة الأضياف ونزول الطراق ، فإن المؤرخ الجبْرِقى
 يصف لنا بيوت الأعيان فى مصر فى القرنين الحادى عشر
 والثانى عشر الهجريين ، فيذكر أنه كان من سنن
 مكارم الأخلاق التى كانت لأهل مصر ولا توجد فى غيرها
 أن فى كل بيت من بيوت جميع الأعيان مطبخين ، أحدهما
 أسفل رجلى ، والثانى فى الحريم ، فيوضع فى بيوت الأعيان
 السباط فى وقتى العشاء والغداء ، مستطيلاً فى المكان الخارج ،
 مبذولاً للناس ، ويجلس بصدرة أمير المجلس ، وحوله الضيفان
 ومن دونهم مماليكه وأتباعه ، ويقف الفراشون فى وسطه يفرقون
 على الجالسين ، ويقربون إليهم ما بعد عنهم من القلايا والمحمرات
 ولا يمنعون فى وقت الطعام من يريد الدخول أصلاً ، ويرون أن



غرفة الضيوف في بيت عربي بالقاهرة

المنع من المعاييب . ولهذا كان بعض أصحاب الحاجات وطلاب
المسائل ينتظرون وقت الطعام ليدخلوا واثقين من أن الحجاب
لا يمنعونهم ، فيدخل صاحب الحاجة حينئذ ، ويأكل وينال
غرضه من مخاطبة صاحب البيت . وكان الأمراء وأصحاب
البيوت يعرفون أصحاب الحاجات هؤلاء ، لأنهم لا ينصرفون
بعد الطعام مباشرة ، وإنما ينتظرون حتى يطلبهم صاحب البيت
من أمراء الممالك والأعيان فيسألهم عن حاجاتهم ويقضيها لهم .
وبعد الجبرتي بقليل من الزمن يصف لنا المستشرق (لاين)
بيوت الضيافة هذه ، بل يصف لنا بيوت الطعام ، وكيفية
الجلوس حولها والانصراف منها وغسل الأيدي قبل الأكل
وبعد ، ويصف لنا كذلك في دقة ملاحظة تلك الأباريق
والطسوت النحاسية التي كانت معدة لغسل الأيدي والأفواه ،
كما يصف لنا صينية الطعام النحاسية المنقوشة أو المكففة بالفضة
وتحتها ذلك الكرسي من الخشب الذي يحملها ، والذي افتن
فيه الصانع فحلاه بالحفر والزخارف ، ورصعه أو طعمه
بالصدف والعاج وما إليهما . . .

ولدينا أكثر من دليل على أن بيوت العامة كانت متلاحة
متلاصقة على نحو ما نراه الآن في الأحياء الوطنية التي ترتد
تاريخاً إلى زمن قديم ، على العكس من قصور الخلفاء والأمراء

التي كانت تباعد ما بينها مساحات واسعة من حدائق وبساتين
كما كان الشأن في قصور الفاطميين بمصر ؛ وكانت الشوارع
— على العموم — ضيقة وملتوية في كثير من أنحاء المملكة
الإسلامية ؛ فلم يراع في تخطيطها تلك السعة التي تتطلبها الآن
ضرورات صحية ، ولم يراع فيها ذلك التعامد في التقاطع الذي
تمتاز به شوارع الدنيا اليوم في تصميم المدن الحديثة . ولكننا
نستطيع أن نستثنى مدينة «سر من رأى» التي بناها المعتصم العباسي
فقد وسع المتوكل شوارعها إلى حد زاد في رقعة المدينة نفسها ،
وجعل عرض الشارع الأعظم فيها مائتي ذراع ، وقدر أن يحفر
قناتين على جانبي هذا الشارع ينصب فيهما الماء ، على أن
المعتصم نفسه حين اختط هذه المدينة وسع فيها الشوارع والدروب
— كما يذكر المسعودي المؤرخ — وأفرد أهل كل صنعة بسوق ،
فبنى الناس ، وارتفع البناء ، واتصل العمران ، وتسامع الناس
أن داراً جديدة للملك قد اتخذت فقصدوها وعمرها الأرض
أكثر مما عمرها .

على أنه في الوقت الذي اتسعت فيه شوارع سامرا «سر من
رأى» كانت شوارع شيراز ضيقة أبلغ الضيق ، لا تتسع
لسير دابتين بعضهما بجانب بعض ، وكان أهلها في بلاء
يعانونه من أجل ذلك . ولم تكن شيراز وحدها هي المنكوبة في

شوارعها ، فقد وفد إلى مصر ابن سعيد المغربي في القرن السابع
الهجري وشاهد بعينه ضيق مسالك القاهرة ، ووصف ذلك
بنص عبارته قائلاً : « . . . ثم تسير منه إلى أمد ضيق وتمر
في ممر كدر حرج بين الدكاكين ، إذا ازدحمت فيه الخيل
مع الرجالة كان ذلك ما تضيق منه الصدور وتسخن منه العيون ،
ولقد عاينت يوماً وزير الدولة ، وبين يديه أمراء الدولة ، وهو
في موكب جليل ، وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة
وقد سدت جميع الطرق بين يدى الدكاكين ، ووقف الوزير
وعظم الازدحام ، وكان في موضع طباحين ، والدخان في وجه
الوزير وعلى ثيابه ، وقد كاد يهلك المشاة ، وكدت أهلك في
جملتهم ! وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب
والأزبال ، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت
مسالك الهواء والضوء بينهما ، ولم أر في جميع بلاد المغرب أسوأ
حالا منها في ذلك ، ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدري
ويدركني وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين . . . »
ولم تكن القاهرة المملوكية وحدها هي التي سخط منها وبرم
بها الرحالة ابن سعيد المغربي وضاق بها صدره ، فقد ضاق
بمدينة الفسطاط أيضاً ، التي يقول إن المسرة أدبرت عنه حين
دخلها . . وقد لفت نظره فيها عدم استقامة شوارعها ، وبناء



حول المائدة

بيوتها من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة ،
وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف
ويغض طرف الظريف . . .

وإذا كنا نلاحظ اليوم في مدن مختلفة من القطر المصرى
بعض الشوارع المسقوفة الضيقة في الأحياء التجارية فإن ذلك
ليس إلا بقية مما كان عليه الشأن منذ بضعة قرون ، فإن الرحالة
الفارسى ناصر خسرو قد لاحظ ذلك في القاهرة القرن الخامس ،
ولاحظ أن بها أسواقاً وشوارع توقد فيها القناديل ، لأن ضوء
الشمس لا يصل إلى أرضها بسبب تلك السقوف من الخشب
ونسيج القنب « الخيش » الذى يتدلى الآن من سقوف بعض
الشوارع التجارية ، فيذكرنا بالقاهرة التى رآها مؤرخ مسلم في
عصر الفاطميين . . .

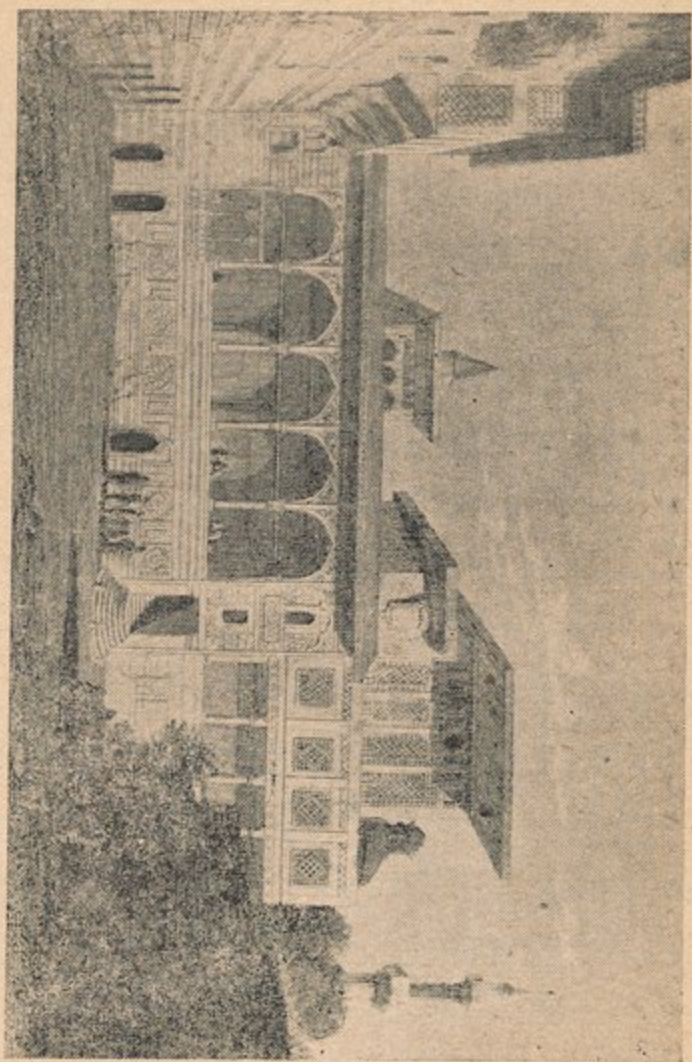
وقد كان لهذه الدروب والشوارع حراس يقومون عليها بالليل
والنهار ، وقد وضع الإمام السبكى من علماء مصر في القرن
الثامن الهجرى دستوراً لؤلاء الحراس ، فشرط على الواحد منهم
أن ينصح أهل الدرب ، ويُسهر عينه إذا ناموا ، وينبه النوام
إذا اغتيلوا بحريق أو غيره ، ولا يدل على عورتهم والياً ولا غيره .
وهذا الشرط الأخير يذكرنا اليوم باصطلاح سر المهنة ، الذى
فُرض أن يحافظ عليه من يستودعون أسرار الناس وأمورهم الخاصة

كالحامين والأطباء .

ولم يحرمنا المستشرق « لاين » وصفه لشوارع القاهرة ودروبها في أول القرن التاسع عشر وفي عهد محمد على باشا الكبير ؛ على أن العالم الفرنسى الدكتور « غوستاف لوبون » قد زار مصر في منتصف القرن الماضى ، ولم يفته فى كتابه « حضارة العرب » أن يصف شوارع القاهرة بأنها - ككل مدينة شرقية - ضيقة ملتوية غير منتظمة ، فتكاد أطناف البيوت تتلاصق ، وخاصة فى الأحياء القديمة ، أما الأحياء الحديثة ، وهى التى اختطت فى عهد إسماعيل باشا فلم يجد المفكر الفرنسى فيها ما يكون موضعاً للمؤاخذه .

ولم أعثر على رحالة أو جَوَّاب التمس العذر لضيق شوارع المدن الشرقية أو العربية كما صنع الدكتور غوستاف لوبون.. فقد أوضح أن الحكمة فى ضيقها هى الاستكثار من الظل ، والاحتفاظ ببرودة الهواء فى مثل تلك الأجواء الحارة المشمسة ، ولعل ذلك يعلل لنا تلك الشوارع المسقوفة التى أشرنا إليها قبيل ذلك ، ولكنها كانت تحجب المطر أيضاً خشية أن يصل إلى الأرض فيعطل الحركة فى تلك الشوارع التجارية التى كانت تعد أسواقاً عظيمة القيمة .

والآن — بعد أن جئنا جولة في شوارع ومسالك ودروب من المدن العربية والإسلامية — فقد وجب أن نخرج على حمام من تلك الحمامات الكثيرة المنتشرة في بلاد كثيرة من الشرق العربي ، لعلنا ننفض غبار الرحلة ، أو ننفض ذلك الغبار الذي كانت تعج به شوارع مصر وهواؤها إلى حد يخنق الأنفاس كما ذكره ابن سعيّد المغربي وغيره من الرحالين . . . والحمام جديد على المجتمع العربي الذي أخذه عن الرومان واليونان . ولهذا يقول فيه ابن عمر : « الحمام من النعيم الذي أحدثوه » . ولقد أقبل العرب على الحمامات العامة الساخنة ، وخاصة في عصر الحضارة والترف على الرغم مما ورد في ذمها ، فقد روي أن الإمام علياً قال : « بئس البيت الحمام ! تكشف فيه العورات ، وترتفع فيه الأصوات ، ولا يقرأ فيه آية من كتاب الله » ولعل هذا هو السر في تحرج المسلمين من دخول الحمامات زمناً ما ، بما أثير من نقاش حول إباحتها وكراهتها . ولعل هذا يفسر لنا قلة عدد الحمامات في مصر الطولونية والإخشيدية . إلا أنها انتشرت بعد ذلك ، ولكنها لم تبلغ من الكثرة في مصر مثلاً ما بلغت في بلاد الشام والعراق . فعلى حين كان في بغداد بضعة آلاف من الحمامات العامة منذ القرن الثالث الهجري ، وعلى حين كانت دمشق تزدهم بالحمامات الكثيرة التي ألفت فيها الكتب مثل



بيت من بيوت القاهرة في العصر العثماني

كتاب «عدة الملمات في تعداد الحمامات» ليوسف بن عبد الهادي من رجال القرنين التاسع والعاشر - نرى أن عدد حمامات القاهرة في القرن السابع الهجري بلغ ثمانين حماماً فقط ، في الوقت الذي كان فيه بالفسطاط أكثر من ألف حمام . . .

وأياً ما كان عدد الحمامات واختلافها في كل قطر عربي ، فقد كان قيامها ظاهرة طريفة في المجتمع العربي ، وكانت نيرانها ورخامها وقسيّتها وأحواضها الساخنة وأبخرتها الحارة موضوعاً طريفاً للشعراء والكتاب ، وكان العرق المتصبب من رواد الحمام بسبب الحرارة مثاراً لقرائح الشعراء الذين يقول واحد منهم :
لم أبغ بالحمام طيب تنعم أفنى البكاء دموع عيني أجمعا
فبكيت فيه أسى بجسمي كله حتى كأن لكل عرق مدمعا!
والإشارة هنا إلى انبثاق العرق من كل مسام الجسم ، حتى كأن بكل عضو عيناً تبكي . . .

وإذا كانت الحمامات العربية أو الإسلامية على وجه العموم قد أضافت إلى فن الرياضة «العمارة» العربية كثيراً من الغنى والجمال ، بما أبدعه فيها الفن الجميل من نقوش وزخارف وصور وتلوين زجاج وافتنان في الأثاث والرياش ، فإن كثيراً من العادات والتقاليد قد نشأ حولها وقام بقيامها . . .

ولعل لصوص الحمامات كانوا طائفة من المجتمع العربي

لا يجوز إغفالها هنا ؛ فقد كانوا يلصون الثياب في غفلة من قوام الحمام ، وكانت حوادث الزلق على أرض الحمام ، وحوادث السرقة من الكثرة بالحد الذى قيل فيه : « دعوتان مغفول عنهما عند دخول الحمام : سلمك الله من الزلق ، وحرس ثيابك من السرقة ! » ، ولعل أطرف ما ذكر من السرقة حادثة محمد « ابن سكرة » الشاعر الظريف ، الذى دخل الحمام فسرق مداسه ، فخرج منه حافياً ، فصار أشبه بالمتصوف الزاهد « بشر الحافى » ، فقال فى ذلك :

إليك أذم حمام ابن موسى وإن فاق المنى طيباً وحرّاً
تكاثر اللصوص عليه حتى ليحفى من يطيف به ويعرى
ولم أفقد به ثوباً... ولكن دخلت محمداً فخرجت « بشراً »
أى دخلت محمداً فخرجت حافياً مثل بشر الحافى...

وكانت سرقة الملابس فى الحمامات موضوعاً لذيذة للتندر والمداعبة بين الأدباء والشعراء ، فقد سرق شاش عمامة متولى دمشق وهو فى أحد حماماتها ، فكتب فى ذلك أديبنا وشاعرنا المصرى الظريف جمال الدين بن نباتة من رجال القرن الثامن الهجرى : « فما عبر المملوك فى عمره أحر من هذه الحمام ، ولا نكس فى رأسه العلية مثل هذه الأيام ! فىا للعواطف العربية ، ويا المراحم النفوس الأبية ! فوالله لقد خف رأس المملوك من

الجهتين عقله وشاشه ، ولقد تعوض من تاج عمته العربية مخدة
فراشه ! »

ولقد عرفت البلاد العربية الفنادق التي كان يأوى إليها
المسافرون من بلد إلى بلد ، ولكنها لم تكن من العناية وتوفير
أسباب الراحة على ما نعهده اليوم ، وكانت تسمى بأسماء أصحابها
كفندق « أبي الثناء » الذي نزل فيه الرحالة الأندلسي ابن جبير
في زقاق القناديل ، على مقربة من جامع عمرو بن العاص
بمصر العتيقة ، وقد وصف الرحالة الحجارة التي نزل فيها بالكبر ،
وأنها كانت على باب الفندق المذكور ، يعنى أنها مشرفة على
مدخل الفندق لا داخله في بنائه ، ولما غادر هذا الرحالة الدقيق
الملاحظة مصر إلى بلاد العرب نزل بثغر « جدة » ورأى فنادقها
المبنية بالحجارة والطين ، ولعلها لم تكن أسعد حالا من فنادق
مصر ، فقد بلغ الأمر بكثير منها أن بضعة من النزلاء يبيتون
في الغرفة الواحدة ، وكانت مرابط الخيل ، ومواقف الحمير ،
وأحواض الماء ومذاود العلف تقوم على كثر من هذه الفنادق
يرتبط فيها النازلون خيلهم ، ويعلفون ويسقون دوابهم .

* * *

ولم تكن الفنادق تعرف وحدها بتميزها في الشكل والمدخل ،
بل كانت السجون من الأبنية التي تمتاز بطابع خاص في



منظر داخلی حمام عربی

الاجتماع العربي على اختلاف الدهور . ولقد كان قيامها ضرورة اجتماعية منذ الأيام الأولى للفتوح العربية ، ففي سنة ٢٣١ هـ نرى أن بغداد كان بها عدد من السجون امتلأت بقوم من النهابين الذين عدوا على بيت المال فأخذوا منه شيئاً من الذهب والفضة ، فأمر الخليفة الواثق بأخذهم وإيداعهم السجون ، وجاء المعتضد بعد ذلك فخصص للسجون جزءاً من مال الدولة لنفقات السجون وأقوات المسجونين ؛ ونرى السجون في مصر ترجع إلى أزمان متقدمة منذ الفتح العربي ، وفي أخبار مصر للقرن الرابع الهجري نرى أن سيبيويه المصري يمضي به إلى « الصناعة » ويحبس في « بيت الزفت » ثم ينقل من بيت الزفت إلى سرير نصب له على شاطئ النيل . ولعل بيت الزفت هذا كان مكان السجن في مصر الإخشيدية . وفي خطط المقرئى أن السجن الذى هو حشد جماعة من المذنبين في مكان واحد لا يجوز عند أحد من المسلمين ، وذلك أنه يجمع الجمع الكثير في موضع يضيق عنهم ، غير متمكنين من الوضوء والصلاة ، وقد يرى بعضهم ما لا يحل أن يرى من بعض . ولكن هذه السجون الجماعية قد انتشرت في كل بلد عربي ، واشتهرت بجماعة من الحراس والسجان القساة القلوب الغلاظ الأكباد . ويظهر أن تكليف المسجونين بالأعمال والصناعات

كان شيئاً قديماً؛ وتختلف هذه الأعمال سهولة وصعوبة باختلاف الحالات والأزمان . فما ينسب إلى الشاعر ابن المعتز قوله : تعلمت في السجن نسج التكك . وكنت امرأ قبل حبسى ملك ولكن تلك أهون الحرف في ظلام السجن ووحده ، بالقياس إلى ما ذكره « المقرئى » من أن المسجونين كانوا يستعملون في الحفر وفي العماير ونحو ذلك من الأعمال الشاقة ؛ والأعوان — أى الحراس — تستحثهم ، فإذا انقضى عملهم ردوا إلى السجن في حديدهم من غير أن يطعموا شيئاً . . . ولكن يظهر أن الحرمان من الطعام لم يكن فى أغلب الأحوال ، فإن الأصل أن تجرى عليهم الأرزاق حتى لا يهلكوا جوعاً .

ولعل من المناسب هنا أن نذكر أن أول دار اتخذت فى الإسلام سجنًا هى دار صفوان بن أمية ، التى ابتاعها الخليفة المجتهد فى الدين — عمر بن الخطاب — من صفوان بن أمية بمكة بأربعة آلاف درهم ، وجعلها سجنًا يحبس فيه . وقد تكلم فقهاء المسلمين فى هذه السجون العامة ، التى لم يثبت لها وجود فى عهد النبى عليه السلام وصاحبه أبى بكر ؛ ولكن يشاء الله أن تفتح هذه السجون أبوابها للعلماء والفقهاء الصريحين فى قولة الحق ، والذين لا تأخذهم فى الله ولا فى العقيدة لومة لائم . . . فترى فى القرن الثالث الهجرى الإمام أحمد بن حنبل يؤخذ فى

فتنة خلق القرآن فيضرب ويسجن ، ثم نرى أحد أتباعه وأنصاره
الأجلاء يوضع في السجن ويثقل بالحديد ، كما نقله هنا عن
المؤرخ ابن كثير .

* * *

وإذا كانت الحكمة تقول : « افتح مدرسة تغلق سجنًا » فما
أحرانا أن ننقل انتقالة سريعة من ذلك العالم المملوء بالغيابات
والسدود والقيود إلى عالم المدرسة العربية ، لنطوف طوفة عجلة
بأمكنها ونظم التعليم فيها ، وما اشترطوه في المعلمين حتى يكونوا
أهلاً للقيام بمهنتهم . وما بنا حاجة إلى أن نطيل الوقوف عند
نشوء المكاتب والمدارس في الإسلام ، فذلك قد يسوقنا إلى مبحث
طويل في تاريخ التربية والتعليم عند العرب ، ولكن إنشاء دور
خاصة للتعليم ، وتخصيصها للطلبة ، ووقف الأموال عليها ،
لم يعلم إلا في عهد السلجوقيين ، حين بنى نظام الملك الطوسي
وزير ملك شاه السلجوقي المدرسة النظامية ببغداد في القرن
الخامس الهجري ؛ وإذا عدنا نيسابور بقعة من المملكة
الإسلامية — ولو لم تكن عربية الصبغة — فإنها عرفت نظام
المدارس المبنية في الإسلام قبل عهد المدرسة النظامية .

أما التعليم ذاته قبل إنشاء المدارس فقد كان يقوم في المساجد
وكان العلماء والفقهاء يجمعون التلاميذ حولهم على شكل حلقة ،

وكان من الطبيعي أن يتسع المسجد لأكثر من حلقة واحدة .
 ولما كانت المساجد هي المدارس الأولى في العالم العربي ؛
 وكان التلاميذ يحفظون فيها القرآن ويعلمون الخط فقد منع
 الفقهاء الصبيان من دخول المساجد وتعليمهم الخط فيها ،
 لأن النبي عليه السلام أمر بتنزيه المساجد منهم ومن المجانين ،
 خشية أن يسودوا حيطانها ، وينجسوا أرضها لعدم تحرزهم .
 ورأى الفقهاء أن تتخذ حوانيت للتعليم في الدروب وأطراف
 الأسواق . ولقد كان مؤدبو الصبيان لا يخرجون من استخدامهم
 في قضاء حاجاتهم وأشغالهم ، وتسخيرهم حتى في أخس الأعمال
 التي لا تتفق مع تشيئة بيوتهم ، كنقل الزبل ، وحمل الحجارة ،
 ولهذا جعل « الشيزي » الحسبة على المؤدبين والمعلمين حتى
 لا يسيئوا استعمال مهنتهم . .

ويصف لنا الرحالة ابن جبير حلقات الدروس في الحرم
 المكي ، وقد رفعت فيه مصاطب يجلس عليها النساخون والمقرئون
 والحرم محقق بحلقات المدرسين وأهل العلم ؛ أما دمشق في
 عهد هذا الرحالة فقد كان فيها — على ما يذكر في رحلته —
 نحو عشرين مدرسة ، كما كان في بغداد في ذلك العصر
 ثلاثون من هذه المدارس . وكان نظام « الجراية » في المعاهد
 قائماً في دمشق ؛ وكان أصحاب الحلقة والغنى من الآباء ينزهون

أبناءهم عن أخذ هذه الجراية ، أما الباكون فيأخذونها ، وقد عد
« ابن جبير » ذلك من المفاخر الإسلامية .

وقد كثرت المدارس في مصر على عهد الأيوبيين ، وجاء
المماليك بعدهم فزادوا عددها حتى قارب المائة قبيل الفتح
العثماني .

ولا يزال « للكتاب » أو « المكتب » كثير من الارتسامات
اللطاف في ذاكرة كثير منا ممن تعلموا فيها أو أدركوا أيامها ،
أما البراعم المتفتحة من أبنائنا فقد أراحهم الله من كثير من
ألوان العذاب التي كانت تموج بها هذه الكتاتيب . . .

* * *

وإذا انتقلنا من الصحة العقلية إلى الصحة الجسمية في المجتمع
العربي رأينا عند العرب نزوعاً منذ جاهليتهم إلى التداوى والتطبيب
حتى ولو كان ذلك على يد العرافين . . . ولقد كان للدولة
الأموية فضل إنشاء أول « مارستان » أو دار للشفاء والتمريض
في الإسلام ، وكانت دمشق أول مدينة عربية ظفرت بهذا
الحظ الكبير . وفي الحق أن مارستان الخليفة الوليد بن عبد الملك
بدمشق كان معزلاً للمجنونين أكثر منه داراً للعلاج ؛ وعلى
كل حال فقد كانت هذه هي الخطوة الأولى التي سار عليها
العباسيون ؛ فقد رأينا بغداد في القرن الثاني من الهجرة يقوم فيها

«مارستان» فينجح ويتولاه كبار الأطباء من النصارى أولاً ؛
ثم رأينا مصر فى العصر الطولونى يقوم فيها أكبر مارستان على يد
«أحمد بن طولون» ، ثم يدار بحكمة وتنظم المعالجة فيه ،
ويعين له أمين للقيام على ثياب المرضى وحاجاتهم حتى يبرءوا
فترد إليهم أماناتهم .

ويعصف لنا ابن جبير مارستان القاهرة فى العصر الأيوبي ،
فهرى من الوصف أن فن المستشفيات والتريض كان على حال
متقدمة فى تلك الأزمان ، فهو يحتل قصراً من القصور الرائقة
حسناً واتساعاً ، وقد بناه السلطان احتساباً ، وعين له قيما من
أهل المعرفة بالطب ، ووضع لديه خزائن العقاقير ، ومكنه
من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها ، وكانت
أسرة المرضى الموضوعة فى مقاصر القصر مضاجع كاملة الكسى ؛
وبين يدي ذلك القيم خدمة «ممرضون» يتفقدون أحوال المرضى
بكثرة وعشياً ، فيقابلون من الأغذية والأشربة ما يليق بهم .
وبلغ من التخصيص فى فن المستشفيات أنه أقيم بجوار ذلك
المارستان موضع مقتطع منه خاص بالنساء المريضات ، ولهن من
يكفلهن . كما اتخذ بالقرب منه موضع آخر متسع الفناء
لمقاصيره شبابيك من الحديد ليكون داراً للمصابين فى عقولهم .
وكان السلطان نفسه يلاحظ هذه الدور ملاحظة دقيقة ،

ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد .
ويروى لنا الرحالة الطبيب الأندلسي أبو الصلت الذي
زار مصر في العصر الفاطمي حكاية رجل كان يعالج المرضى
في المارستان الفاطمي بغير عقار ولا دواء . . . بل كان يدخل
على المريض فيحكى له حكايات مضحكة ، وخرافات مسلية
ويخرج له وجوهاً مضحكة ، وكان فيه قدرة على إضحاك
المريض وله في ذلك مسالك لطيفة ، فإذا انشرح صدر المريض
وعادت إليه قوته تركه ليمضي في طريق البرء . وكان أبو الصلت
نفسه — وهو طبيب — يذهب مذهب ذلك الرجل في التطبيب
ويرى علاجه لا مضرة فيه ولا غائلة له ، بل أمره على العليل
هين ، ونفعه ظاهر بين — كما يقول في « رسالته المصرية » .

أفراح وأتراح

الأعياد والمواسم - حفلات الزواج - حفلات الختان -
حفلات الشفاء - حفلات الحمل - الموالد - الجنائز . . . الخ

لم يخل المجتمع العربي من ساعات السرور وأوقات الفرح التي لا تطاق بدونها حياة ، ولا يحتمل مع عدمها عيش . والتي احتال الناس فخلقوها خلقاً ليفيدوا طباعهم المكدودة راحة ، ونفوسهم المحزونة مسرة . بل ساعدت الأديان على إيجاد هذه المناسبات الفرحة السعيدة ليخلص الناس فيها بعض الوقت إلى جو من الفرح لا يألفونه على مدار العام كله . ومن هنا كانت أعياد المسلمين وغير المسلمين في أقطار العربية ، وهي تلك الأعياد والمواسم التي اتخذت في كل أرض لوناً خاصاً بها ، وطبعت بطابع يميزها من غيرها . ولقد كان المسلمون في أنحاء كثيرة من المملكة العربية لا يكتفون بأعيادهم وحدهم ، وإنما شاركوا غيرهم من أهل النحل الأخرى في النواحي المرحية المسلمية من أعيادهم . وكثيراً ما روى لنا المؤرخون والرحالون أوصاف ما شاهدوه من تعييد المسلمين في أعياد إخوانهم غير

المسلمين ، فينتهزون ذلك الجانب البهيج من تلك الأعياد ،
ويخرجون إلى المنازه والمقاصف والأديرة ويضربون السراقات في
الحلاء ، ويستمعون إلى عزف القيان ، ويبيحون من وسائل
اللهو والترفيه في تلك الأيام ما لا يباح في غيرها ؛ ويروى
« المقدسى » عن عيد للنصارى بالعراق أنه من الأعياد التي
يتعارفها المسلمون ويحسبون بها الأزمنة والفصول ؛ وقد شهد هو
ذلك العيد في بغداد في خلال رحلته إليها .

وكان لعيد الغطاس في مصر فرحة خاصة في المجتمع كله
— قبضيته ومسامحه — وكان أهل مصر يجدون فيه من الفرح
ما لا يكون لغيره من أيام السنة . وقد شهد المؤرخ المسعودي
هذا العيد في مصر في عهد الإخشيد سنة ٣٣٠ هـ « وقد أمر
فأسرج من جانب الجزيرة وجانب القسطنطين ألف مشعل ،
غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع ، وقد حضر
النيل في تلك الليلة مئو آلاف من الناس المسلمين والنصارى ،
منهم في الزوارق ، ومنهم في الدور الدانية من النيل ، ومنهم
على الشطوط لا يتناكرون الحضور ، ويحضرون كل ما يمكنهم
إحضاره من المأكول والمشرب والملابس وآلات الذهب والفضة
والجواهر والملاهي والعزف والقصف ، وهي أحسن ليلة تكون
بمصر ، وأشملها سروراً ، ولا تغلق فيها الدروب ، ويغطس

أكثرهم في النيل ، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ
للداء » .

ولقد أضفى الفاطميون بمصر على الأعياد الإسلامية كثيراً
من ألوان الفخامة والأبهة والمظاهر والمراسم ، وخاصة عيدي
الفطر والأضحى وأول رمضان — أو عيد الرؤية — والجمع
الثلاث من رمضان ، وأول العام الهجري . وقد ترك لنا المؤرخون
كثيراً من أوصاف هذه الاحتفالات . وكان الخليفة الفاطمي
يخرج لصلاة العيد في موكب حاشد ، وتزين المساجد ويفرش
المسجد الذي يصلي فيه الخليفة بالطراحات في المحاريب ،
وتعلق الأستار ، وتركز الألوية ، ويخرج الخليفة راكباً ومعه
المظلة والتاج وغير ذلك من الآلات ، ويلبس الثياب البيض
الموشحة فهي أجل لباسه في ذلك اليوم ، ويخرج الأمراء
والأجناد والركبان والمشاة ، وينتظم القوم صفين على طول
الطريق من باب القصر إلى المصلى . . . وكانت رسوم الصلاة
والدعاء والخطبة والصعود على المنبر والهبوط منه مما يحرص
أبلغ الحرص على تنفيذه .

وجاء المماليك فأبقوا الاحتفال بعيدي الفطر والأضحى في
مصر ولكنهم غيروا من الرسوم بقدر ما يلائم أحوالهم وظروفهم
وتقاليدهم ، فقد كان السلطان المملوكي يخرج للصلاة يوم

العيد بمسجده الذي أنشأه أو بغيره من المساجد ، ثم يعود إلى قصره ليصعد إليه الوافدون عليه بالتهنئة . وكان يخلع في هذا اليوم الخلع السنية ويقدم الجوائز الثمينة إلى الأمراء وكبار الوافدين عليه . وكان موكب الوزير للصلاة في العيد رسماً متعلماً ؛ فيركب بغلته ، وعلى رأسه الطرحة البيضاء ، وتحت عمامته طاسة مذهبة ، وحول عنقه سبحة كبيرة الحبات من العنبر ، وتسير أمامه الأوجاقية لابسين التريات ، وهي ثياب من الحرير الأصفر ، وبين يديه ينطلق البخور من مبخرة كبيرة تسمى مبخرة السلطان .

وكان الناس يفرحون في هذين العيدين ، فيلبسون أحسن ثيابهم ويتطيبون اقتداء بالرسول عليه السلام ، ويتزاورون بعد الصلاة وزيارة القبور . وكان لعيد الفطر تكاليفه الكثيرة من الكعك ، والخشكنان ، والبسندود ، والسّمك المجفف ، والنقل التي تجد في هذا العيد أعز مواسمها ، وتلقى أكثر الطلب عليها .

وقد بعد الناس مع الزمن عن فكرة الأعياد الدينية ووجوب مراعاة الفقير فيها ، ومقاسمته السرور فيها ؛ فأصبحت تقليداً ومظاهر ، للتباهي والتكاثر ، حتى أضحت مطالبها وتكاليفها إرهاقاً وتكليفاً بما لا يطاق ، وأصبح كثير من الناس يعملون

لها حسابها ويحرصون على أن لا يجرموا أسرهم منها . وإذا كان
بعض غير الواجدين يحتفظون بآلام الحرمان في الأعياد ومرارته
في نفوسهم فإننا نجد شاعراً مصرياً مشهوراً هو الإمام محمد
ابن سعيد البوصيرى صاحب البردة المعروفة يشكو إلى وزير
من وزراء مصر في العصر المملوكى من حلول عيد الفطر وما
عنده ولا عند أولاده قمح ولا خبز ولا فطرة ، فيقول :

يا أيها المولى الوزير الذى	أيامه - طائعة أمره
ومن له منزلة فى العـلا	تكلم عن أوصافها الفكرة
إليك نشكو حالنا إننا	حاشاك من قوم أولى عسره
فى قلة نحن ولكن لنا	عائلة فى غاية الكثرة
أحدث المولى الحديث الذى	جرى لهم بالخيط والإبرة
صاموا مع الناس ولكنهم	كانوا لمن أبصرهم عبره
إن شربوا فالبئر زير لهم	ما برحت ، والشربة الجره
لهم من الخبـيز مصلوقة	فى كل يوم تشبه النشرة
أقول مهما اجتمعوا حولها	تنزهوا فى الماء والخضرة
وأقبل العيد وما عندهم	قمح ولا خبز ولا فطره
فارهمو إن عاينوا كعكة	فى كهف طفل أوراوا تمره
تشخص أبصارهم نحوها	بشهقة تتبعها زفره .. !!

وكان لشهر رمضان من البهجة دائماً عند المسلمين خلال
العصور ما لا يجمل بنا إغفاله هنا ، وإن كان انقلب
الاحتفال به إلى كثير من المظاهر التي غالت المجتمعات العربية
المتأخرة فيها ، وخاصة في مصر الفاطمية التي استحدثت من
الأمر في شهر الصيام ما لا عهد للمسلمين الأولين به ، فكان
الخليفة الفاطمي يرسل في أول يوم من رمضان إلى كل واحد
من الأمراء وأرباب الرتب والخدم طبقاً ، ولكل واحد من
أولاده ونسائه طبقاً فيه حلواء ، وفي وسطه صرة من ذهب ،
فيعم ذلك سائر أهل الدولة ، وكانت المساجد تعد في أخريات
شهر شعبان إعداداً خاصاً لاستقبال شهر الصوم ، فتجدد
الحصر ، وتصلح القناديل ، وتصلح عمارتها ، ويزال شعنها .
فإذا ما دخل رمضان مدت الأسمطة التي وصفها صاحب
« الخطط » وصفاً دقيقاً ؛ وكان الخليفة يجلس إلى وقت السحور
والمقرئون تحت الروشن يتلون عشراً من القرآن ويطربون بحيث
بشاهدهم الخليفة ، ثم يأخذ المؤذنون في التكبير وذكر فضائل
السحور ، ويقوم المتصوفة بالرقص الصوفي أو رقص الدراويش
إلى أن ينقضي من الليل أكثر من نصفه ، ثم يأخذ الفراشون
وعلى رأسهم أستاذهم في تقديم جفان القطائف وجرار الجلاب
والسحورات المطيبات من اللبن الرطب والمخض وأنواع العصارات

والسويق الناعم والحريش ، وكل ذلك في صحون من الصيني
على صينيّات من الذهب . . .

هذا ما كان في مصر . . . أما في مكة المكرمة فقد شهد
ابن جبير الحفاوة برمضان في القرن السادس ، وفيه وقع الاحتفال
في المسجد الحرام للشهر المبارك ، وجددت الحصر ، وكثرت
الشموع والمشاعيل ، حتى تلاًل الحرم نوراً وسطع ضياء ،
وقد نصبت أمام المحراب شمعتان كبيرتان موقدتان زنتهما قنطار .
وحف بهما شمعات - دونهما - صغار وكبار . وكان كل
قارئ يصلي بجماعة خلفه ، فيرتج المسجد لأصوات القراء من
كل ناحية .

ولقد بقيت عندنا من عادات رمضان عند الفاطميين والمماليك
أمور كثيرة . . حتى هذه القناديل أو المصابيح التي كانت
تضاء ولا تزال تقد طول الليل حتى يؤذن المؤذن لصلاة الفجر
فتطفأ القناديل . . وكان مؤذن السحور - أو المسحراق -
يتولى ذلك العمل من المسجد ؛ ولكن في عصور متأخرة رأيناه
يجوس خلال الدروب والحواري والأزقة بقنديله أو فانوسه الضئيل
وبطبلته التي تذكرنا بالطبول والدفادب التي كانت تضرب
في أول رمضان إيذاناً بالصيام .

ومما يتصل بالمواسم الدينية في المجتمع العربي تلك الموالد التي يقيمها المسلمون وغير المسلمين احتفالاً بميلاد رجال ينزلون من نفوس قومهم منازل التبجيل والتكريم ، فنرى مولد النبي عليه السلام عند المسلمين ، ونرى مولد المسيح عليه السلام عند النصارى — في البلاد الإسلامية — الذين كانوا يحتفلون بهذا العيد بإيقاد النيران لعله ذكرها أحد علماء الشيعة في القرن الرابع . ونرى أقباط مصر يحتفلون بعيد ميلاد المسيح في التاسع والعشرين من شهر كيهك القبطي — كما يقول المقرئ — « وما برح لأهل مصر به اعتناء ، وكان من رسوم الدولة الفاطمية فيه تفرقة الحمامات المملوءة من الحلاوات القاهرية والمتارد التي فيها السمك ، وقربات الحلاب ، وطيافير الزلابية والبورى » وهكذا كان مولد المسيح عليه السلام في مصر الإسلامية فرصة لاحتفال الأقباط والمسلمين به على السواء . .

أما مولد النبي محمد عليه السلام الذي احتفى به الفاطميون على طريقة لم يعهدها السلف ، فقد كان مشهداً لا يفوتنا ذكره هنا ، وكان من عادة الفواطم فيه أن يعمل في دار الفطرة عشرون قنطاراً من السكر الفائق حلوى من طرائف الأصناف ، وتبغى في ثلاثمائة صينية نحاس ، وتفرق ليلة المولد النبوي على أرباب الرسوم ، ويظهر أن أصحاب المراتب كانوا دائماً

يظفرون بالخط الأوفر من هذه الحفلات ، أما أفراد الشعب فلم يكن لهم إلا التفرج على هذه المواكب من بعيد ، وقد يمنعون من المرور حتى تتم مراسم الاحتفال . ولا تزال أصناف الحلوى التي تعمل في مولد النبي في عصرنا هذا أثراً من آثار الفاطميين في مصر .

وكان للأولياء موالد تقام لهم ويحتفل بها الشعب احتفالات يجد فيها متنفساً لنفسه . فنجد مولد « الشيخ إسماعيل الأنباري » يقام بأرض الجزيرة تجاه بولاق في عهد السلطان الغوري ، ونجد كثرة من الخيام تضرب في الأرض الفضاء هناك حتى يبلغ عددها خمسمائة خيمة ، ونرى المؤرخ ابن إياس يصف لنا في حوادث سنة ٩١٣ هـ كيف نصبت الأسواق على هيئة دكاكين في مولد ذلك الولي ، وكيف خرج الناس في الفرجة عن الحد ، وأقاموا هناك ليالى متوالية نائمين في الخيام بعيداً عن بيوتهم في القاهرة ، وكان أصحاب اليسار يقدمون الأطعمة وينصبون الموائد في تلك الموالد التي كانت تقوم كأسواق رائجة للبيع والشراء . ولم تسلم هذه الموالد من وقوع الحوادث التي قد تكدر صفوها ، كحادث الحريق الهائل الذي وقع في مولد الشيخ سويدان المجذوب في مدرسة ابن الزمن ببولاق في أخريات العصر المملوكي وقبيل العصر العثماني . . . فقد كانت امرأة

تطبخ على شاطئ النيل فطارت منها شرارة فتعلقت بمركب يحمل كتاناً ، وكانت الريح ليلة المولد عاصفة فامتدت إلى معصرة هناك وسرت في نواحيها . . حتى احترقت ونهب ما بها من قصب وسكر وعسل . . .

ومن أطرف المواسم في المجتمع العربي موسم الحج والتهيؤ للمحمل ، وهو ذلك الحمل الذي يكسى كسوة خاصة ويركب تركيبات ثمينة ليحمل كسوة الكعبة الشريفة كل عام ، وقد كان له مواكب خاصة في كل من العراق والشام والمغرب ومصر ، ولهذا يذكر « السيوطي » أن عدة المحامل السلطانية أربعة ، ولم يبق الآن إلا الحمل المصري الذي نشهده كل عام تحت سمعنا وبصرنا فلا حاجة بنا إلى وصفه . ومهما يكن من أمر بداية خروج محمل إلى الأراضى المقدسة في العالم الإسلامى فإن السلطان الظاهر بيبرس المملوكى المصرى هو أول من أمر بطواف الحمل والكسوة بالقاهرة وكان ذلك في شوال سنة ٦٧٥هـ وكان يوم خروجه يوماً مشهوداً في الديار المصرية . وكانت القاهرة تأخذ زينتها للاحتفال بخروج المحمل ، وتبالغ في الحفاوة به مبالغة عظيمة ؛ وكثيراً ما تحمل الناس ضروباً من مكابدة النفقات لتزيين محالهم وبيوتهم وتجميلها بالأطمية والأدهنة والأقمشة الملونة والحرير المطرز ، وتعليق القناديل وإضاءة

الشموع ليلاً ونهاراً ؛ وتنصب الأسواق في كل مكان وتنتشر الكراسي والمقاعد ، ويخرج الناس على اختلاف ألوانهم فيختلفون إلى أماكن اللهو والتسلية ويسمعون وهم متعلقون إلى أناشيد الشعراء والقصاصين ، ولقد يستخف الطرب والنشوة كثيراً من أفراد المجتمع القاهري بمن وفد عليه من الأقاليم فيرقصون ويسمرون ويغنون ، وتموج شوارع القاهرة بالناس رائحين غادين .

وقد شهد « ابن بطوطة » الرحالة المشهور يوم الحمل بمصر في أول عهده بالرحلة في القرن الثامن الهجري ، فذكر كيف يركب القضاة الأربعة ووكيل بيت المال ، والمحاسب ، وأعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعاً باب القلعة — دار الملك الناصر — فيخرج إليهم المحمل على جمل ، وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة ، ومعه عسكره ، والسقاة على جماهم ، ويجمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ، ثم يطوفون بالمحمل ، بمدينة القاهرة ومصر — يعني الفسطاط أو مصر العتيقة — والحدادة يحدون أمامهم ، ويكون ذلك في شهر رجب — إيداناً بقرب الحج — فعند ذلك تهيج العزومات ، وتنبعث الأشواق ، وتتحرك البواعث .
وتلك صفة العرض الرجبي للمحمل الذي ظل قائماً

بمصر زمناً طويلاً ؛ أما العرض الثاني ، وهو عرض خروج
المحمل فيكون عادة في شهر شوال - أى قبل الحج بشهرين -
تقديراً للرحلة الطويلة في تلك الأزمان .

* * *

وقد كان من مناسبات الأفراح في المجتمع العربي
تلك الحفلات التي كانت تقام للزواج فيجتمع فيها الناس
ويسمرون ويلهون ويقصفون . وكانت تختلف باختلاف
العصور من ناحية ، وعلى قدر أصحاب العرس من ناحية
أخرى . والاحتفال بعقود النكاح قديم في المجتمع
العربي ، حتى ليرجع إلى ما قبل ظهور الإسلام ؛ ولقد
شهد النبي عليه السلام قبل مبعثه - وكان غلاماً - حفلتين
من حفلات الزواج في المجتمع العربي الجاهلي ، ولا بأس
أن نصفهما هنا تمهيداً للوصول إلى تطور الاحتفال بالزواج
في العصور التالية . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
أنه قال : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يفعلونه
غير مرتين ، كل ذلك يحول الله عز وجل بيني وبين ما
أريده من ذلك ، ثم ما هممت بعدها بشيء حتى أكرمني
الله برسالته ، فإني قلت لغلام من قريش ليلة وكان يرعى
معي في أعلى مكة : لو أنك أبصرت غنمي حتى أدخل مكة

فأسمر بها كما يسمر الشباب ؟ قال : افعل ! فخرجت
أريد ذلك حتى جئت أول دار من ديار مكة سمعت عزفا
بالدفوف والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : فلان تزوج
فلانة بنت فلان ، فجلست أنظر إليهم ، فضرب الله عز
وجل على أذني ، فنتمت فما أيقظني إلا مس الشمس ،
فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ماذا فعلت ؟ قلت : ما
صنعت شيئاً ثم خبرته الخبر . ويمضي الحديث فيصف
النبي في الحفلة الثانية مثل ما وصف في الأولى .

وتصف لنا كتب التاريخ ما كان يجري في حفلات زواج
الخلفاء والأمراء مما يعد أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة . . .
وقد تأنق العباسيون في ذلك وبالغوا فيه ، حتى كان زفاف
« بوران » بنت الحسن بن سهل إلى الخليفة المأمون مما لم
يعهده المسلمون من قبل ، حتى لقد نثر والد العروس في
ذلك من الأموال ما لم ينثره وما لم يفعله ملك قط في جاهلية
ولا في إسلام — كما يقول المؤرخ المسعودي — فقد نثر على
الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك فيها رقاع بأسماء
ضياع ، وأسماء جوار ، وصفات دواب وغير ذلك . . . فكانت
البندقة إذا وقعت في يد رجل فتحها فقرأ ما فيها ، فيجد
على قدر حظه وإقبال سعوده . كما نثر على سائر الناس

الدنانير من الذهب والدرهم من الفضة ، ونوافج المسك ،
وبيض العنبر .

وكان المغنون والمطربون والراقصات يفرحون بهذه الأفراح
ويعدونها من أسعد حظوظهم لما كان يعطى فيها من « النقطة »
أو « النقوط » الذي كان بالدنانير والدرهم ، كل على قدره ؛
وكان هذا النقوط يسمى « الفرض » فى العصور الأولى
كما جاء فى كتاب الأغاني ، أما المتأخرون فيسمونه « النقوط »
وقد استعمله الشعراء فى مفاكهاتهم ، كقول ابن الوكيل
المصرى :

أتاه النسيم الرطب رقص دوحه

فنقط وجه الماء بالذهب المصرى

والتورية هنا لطيفة ظاهرة . على أن العروس نفسها كانت
« تنقط » كما يدل عليه قول الشاعر :

هذى عروس الزهر نقطها الندى

بالدر ، فابتسمت ونادت « معبدا »

وكانت المغلاة فى المهور وجهاز العروس مما لم يفت
المؤرخين أن يذكره فى حوادث السنين ويضربوا به الأمثال .
فصاحب « السلوك » يذكر أنه عقد للأمير أبى بكر بن الأمير
أرغون النائب على « خوند » بنت السلطان على أربعة آلاف

دينار ؛ وعمل لهم « مهما » — أى حفل زواج — عظيمًا مدة أربعة أيام ، ورعى الأمراء الذهب فى الطشت . . . إلا أن ذلك المهر ليس شيئاً بجانب ما دفعه الأمير آنوك على زوجته بنت بكتمر الساقى سنة ٧٣٢ هـ بمصر ، فقد بلغ الصداق اثنى عشر ألف دينار .

أما المغالة فى الجهاز فيكفى فيه ما ذكره المؤرخون فى جهاز « قطر الندى » بنت خمارويه حين زفت إلى الخليفة المعتضد العباسى ، فقد حملت العروس المصرية من مصر إلى بغداد مع عبدالله بن الجصاص ، وحمل معها ما لم ير مثله ولم يسمع به كما يقول صاحب « السلوك » و « الخطط » . وكان من جملة جهازها — كما يذكر صاحب « النجوم الزاهرة » — دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك ، فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف لها قيمة . . . ومائة هاون « هون » من الذهب . . . بل قال « الذهبى المؤرخ » إنها ألف هاون . . . وألف تكة للسراويل ثمنها عشرة آلاف دينار . . . أى أن ثمن التكة الواحدة عشرة دنانير .

ولم تكن أجهزة العرائس فى مصر الطولونية وحدها هى التى تبلغ هذا المبلغ من المغالة ، ففي مصر المملوكية وفى

سنة ٧٢٣ هـ كان جهاز ابنة السلطان التي تزوجها ابن الأمير
أرغون يحتوى على كلة واحدة للسريير « باشخاناه » وستارة ،
وداير بيت زركش بمبلغ ثمانين ألف دينار . . . وآلات
ذهب وفضة بما ينيف على عشرة آلاف دينار . وقد سرت
عدوى الكبار إلى الصغار فأرهب عامة الناس أنفسهم بمطالب
الزفاف والمهور وجهاز العروس إلى حد لا يتفق ومواردهم ،
فكانوا دائماً من الديون على هم مقعد مقيم . . .

ولعل من الطريف أن ننقل هنا وصفا لموكب زواج مملوكي
زفت فيه إلى الملك العادل طومان باى زوجته سنة ٩٠٦ هـ
أى قبيل الفتح العثماني ببضعة عشر عاماً . . . فقد خرجت
العروس - كما يقول ابن إياس المؤرخ - من بيتها بقنطرة
سنقر فى محفة زركشية ، وأمامها رعوس النوب والحجاب
والخاصكية ، وهم بالشاش والقماش ، وأمامها كذلك الولى
ونقيب الجيش والزماد عبد اللطيف ، وأعيان الأكابر والمباشرين
والطواشية . . . وفى صحبتها نحو مائتين من أعيان نساء الأمراء
والعظماء ؛ فلما وصلت إلى باب الستارة فرشت لها الشقق
الحريرية تحت حوافر بغال المحفة ، ونثر عليها خفاف
الذهب والفضة ، وحمل الزماد فوق رأسها القبة والظير ، حتى
جلست بقاعة العواميد ، والموسيقى تصدح فى خلال ذلك . . .

واستمر الابتهاج بقدموها في القلعة ثلاثة أيام ، ووضع أمامها في موكبها كذلك جملة من الصرر وطست وإبريق ومنديل من الزركش .

* * *

ولم يكن الزواج وحده مبعث أفراح في المجتمع الإسلامي العربي وفرصة احتفال ، فقد رأينا على ممر العصور العربية ألواناً من الخلق — أغنياء وفقراء — يحتفلون بختان أولادهم أو «طهارتهم» أو «تطهيرهم» . وكان يقام لذلك من مراسم الأفراح ما يختلف تبعاً لطبقة الناس . وإذا كان العصر العباسي قد شهد ختان عشرات من أولاد الخلفاء والأمراء ، وشهد ما نثر فيها وما فرق من الذهب والفضة والكسوة ، وشهد الموائد والأطعمة الشهية وحلقات اللهو ، فإن المجتمع المصري قد بالغ في مراسم هذه الاحتفالات وخاصة في العصور المملوكية والتركية . . .

ففي سنة ٨٨٦ هـ كان ختان أولاد ابن مزهر ، وكان منزله ببركة الرطلي ، فأُمّ منزله في ليلة الختان كثير من الأمراء المقدمين والعشرات ، وأوقد الناس منازلهم وحلوا بالقناديل ، حتى انقلب الليل نهراً لشدة الضوء ، وكانت الزينات المنتشرة هنا وهناك تجذب إليها الناس زمراً زمراً فيفقدون للتفرج عليها والائتناس والمشاركة في الفرح واللهو ، وكانت المراكب المملوءة

بألوان من الخلق تروح وتغدو على سطح مياه بركة الرطلى ،
 وهم يسمرون ويلهون ؛ وانبعث المغنون والمغنيات فى أرجاء
 المكان الفسيح حول البركة يطربون الحضور بأعذب الأنغام ،
 وعلى رأسهم إمام الغناء فى القاهرة فى عصره : « ابن رباح » .
 وراجت الحلوى فى القاهرة بسبب التهادى والبيع حتى ربح
 البائعون أرباحاً طائلة . وبعث ابن مزهر القاضى - صاحب
 الحفل ووالد المختونين - إلى كل بيت فى بركة الرطلى عشرة
 أرطال من الزيت ، ومائدة فيها مالد وطاب من الطعام . . .
 ولم يألف المجتمع العربى مثل هذه المباهج إلا فى ختان
 الذكور من الأولاد ، أما ختان الإناث فكان يجرى على
 صمت وسكون دائماً ، لولا ما حدث فى مدينة « حمص » الشامية
 سنة ٥٠٣ هـ ، فقد طهر القاضى السيد أبو الحسن بن هندى
 ابنة له ، فصنع لها موكباً . . . وعبرت الفتاة فى سوق حمص
 راكبة على فرس ، ومستقرة على مخدة فوق السرج . . . ومن
 خلفها راكب يمسكها ، وأمامها البوقات والطبول تضرب
 وتدبدب ، وغير ذلك مما يكون عادة بين يدى المطهرين
 من الصبيان . . . وقد ذكر راوى هذه الحادثة ذلك على سبيل
 النكتة والعبرة مما يحصل فى بعض الأماكن وعند بعض الناس
 من الحماقات والسخافات . . .

ولم يكن شفاء الملوك والسلاطين وإبلاهم من أمراضهم يمر في المجتمعات العربية من غير احتفال به وتهليل له . وكان الشعب يشترك في أمثال هذه المناسبات اشتراكاً يدل على مبلغ تعلق الرعية برعاتها ، ولم يفت المؤرخين أن يدونوا أخبار هذه الاحتفالات والزينات وخاصة في العصور المتأخرة ؛ فنجد في حوادث مصر سنة ٧٣٠ هـ وفي عهد السلطان الناصر قلاوون أنه خرج إلى نواحي « قليوب » للصيد ، فوقع من فوق فرسه ، وانكسرت يده ، وأغمى عليه ساعة وهو ملقى على الأرض ، واستدعى له المجبرون والمتطببون ؛ فلما عوفي بعد أكثر من شهر زينت القاهرة ومصر زينة لم يعهد الناس مثلها ، لكثرة ما تفاخروا وغالوا فيها ؛ وظلت الزينات مقامة لمدة أسبوع كامل افتن أهل البلدين فيه بأنواع الترف ، واجتمع أرباب الملاهي في عدة أماكن ومعهم آلات الغناء كاملة ، وقد ازينت القلعة ولبست أبهى أثوابها ؛ وظلت الكوسات بالبشائر تضرب ، والطبول تدق ، ولم يبق أمير إلا عمل في بيته فرحاً ، ولم يبق بيت إلا نصبت عليه معالم الزينة ، ومدت الأسمطة الجليلة ، ووزعت الأعطية على الأيتام ؛ ونزلت زوجة السلطان في عدة من الخدم والجواري لتشهد أفراح القاهرة ومصر بشفاء

زوجها . . . وكانت هذه الأيام — كما يقول صاحب السلوك —
مما يندر وقوع مثله .

وفي عهد السلطان الغورى ، وبعد قرابة قرنين من الزمان
من شفاء السلطان الناصر قلاوون نرى القاهرة مرة أخرى تشهد
مهرجاناً رائعاً جليلاً لشفاء الغورى من رمد بعينه خيف عليه
منه العمى . . . ففي شعبان سنة ٩١٩ هـ خرج محتسب
القاهرة الأعظم ينادى فى الناس بإقامة الزينات ونصب معلم
الأفراح فى بركة الرطلى حيث كانت تتخذ مجتمعاً للزينة فى
ذلك الزمان . وهنا نرى القناديل والثريات معلقة على وجوه
المحال وطاقت المنازل ، ونرى الأعلام الصفرة والحمرة وأقمشة
الحرير ترفرف فى كل مكان ، ونرى المراكب والزوارق وقد
ماجت بها البركة لتنقل المتفرجين من مكان إلى مكان ؛
ونسمع الموسيقى وهى تعزف ، والمغنيات وقد ترددت أصواتهن
فى كل أفق ، نرى الألعاب النارية التى كانت تشعل بزيت
النفط — بدلا من صواريخ زماننا هذا — ونرى الناس يتبادلون
بحق آيات التهنية والتبريك بشفاء هذا السلطان العظيم . ثم
يتماذى الناس فى التعبير عن سرورهم وفرحهم ، فتظل القاهرة
على هذا المنظر البهيج ثلاثة أسابيع . . .

وإذا كانت أعراس الحياة تقابلها المآتم ، كما قضت بذلك
سنة الحياة ، فأولى بنا أن نجوس في خلال المجتمع العربي
لنشاهده في أحزانه ، كما شاهدناه قبل ذلك في مظاهر سروره ،
ومجامع حبه . ولقد كانت الجناز أول الأمر بسيطة لا تعقيد
فيها ولا مظاهر ، إلا ما يكون من سير الرجال خلف الجنازة
للعبرة وتذكر الموت في جلاله ، وقد أفنى كثير من علماء
المسلمين بأن الأولى أن لا يخرج النساء في الجناز ، والذين
أباحوا خروجهن شرطوه بأن يمتنعن من كشف الرؤوس والوجوه
خلف الميت ولكننا سرعان ما وجدنا النساء في مصر
الطولونية والإخشيدية يخرجن خلف الجنازة وقد شققن الجيوب ،
ولطمن الحدود ، وصبغن الوجوه بالسواد ؛ ولعل تلك الصبغة
هي بقية مما كان يحدث في مصر الفرعونية وخاصة في العصور
المتأخرة ؛ ونرى بعد ذلك مصر الفاطمية وقد خرج
فيها النساء في الجنازات ومعهن النوائح بالطبل والضواري بالدف
وهن يصرخن ويعولن . . . وقد نهان الحاكم بأمر الله عن ذلك .
وليس لدينا شك في أن نساء العراق كن أكثر استمساكاً
بأدب الإسلام في الجناز من نساء غير العراق من الأمصار . . .
ففي سنة ٢٤١ توفي الإمام أحمد بن حنبل ولم تشهد بغداد مثل
جنازته ، بل لم يشهد ميت مثل غسله . . . فقد حضر غسله

نحو مائة من بيت الخلافة من بني هاشم. وخرج خلفه من الرجال والنساء ما لم يعلم عدده إلا الله حتى قدره بعض المؤرخين بما زاد على ألف ألف وخمسمائة ألف — أى مليون ونصف. ولكن النساء التزم من الحدود فلم يبد منهن ما يخالف شرعاً أو يناقض سنة. ولقد أخذت الجنائز في مصر المملوكية شكلاً مظهرياً فيه من الرسوم والتقاليد ما لا نزال إلى اليوم نعانى الكثير من آثاره ؛ فكان أهل الميت يؤجرون من ينادى على أبواب المساجد أو يؤذن فوق المآذن بأن فلاناً قد مات . . . ويودع النسوة جثة الميت عند خروجها من منزله بصيحات حارة منكرة تنخلع لها من الأسى أقسى القلوب ، ثم يخرجن خلف الجنازة حاسرات الرؤوس سافرات الوجوه حافيات الأقدام ، وتذبح الذبائح عند خروج الجنازة وعند المقابر وتوزع الصدقات من خبز ونحوه خلال سير الموكب ، وهى محمولة فى أوعية خاصة يسعى بها الساعون . . . ويتقدم محترفو القراءات موكب الجنازة وهم يرتلون كلمات وعبارات أو أبياتاً من « بردة » الإمام البوصيرى ، يلقونها جميعاً بصوت واحد وبنغمة واحدة معروفة . . . وتقام ليالى المأتم وتنصب السراقات للعزاء ، حيث يقرأ القرآن إلى ساعات متأخرة من الليل .

ويروى المؤرخ الجبرقى ما كان يحدث فى مصر أيام العثمانيين

من عمل الكعك المحشو بالسكر والعجمية ، وصنع « الشريك »
وتفريقه على المدافن والترب في أيام الجمع والمواسم صدقة على
أرواح الأموات . ولا يزال ذلك كله باقياً إلى اليوم .

وأغرب ما صادفت من جنازات المجتمع الإسلامي ما ذكره
ابن بطوطة المؤرخ المغربي في القرن الثامن من أنه حضر جنازة
لوالدة أحد الأمراء في آسيا الصغرى ، فخرج ابنها الأمير على
قدميه كاشفاً شعره ، وكذلك الأمراء والماليك ، وثيابهم
مقلوبة . . . وأما القاضي والخطيب والفقهاء فإنهم قلبوا
ثيابهم ، ولم يكشفوا رؤوسهم ، بل جعلوا عليها مناديل من
الصوف الأسود ، عوضاً عن العمام ، ولعلهم لم يضعوا العمام
على رؤوسهم لما في لونها من البياض الذي يتنافى مع الحداد ،
فاستبدلوا بها المناديل السود . وأقاموا يطعمون الطعام أربعين
يوماً ، وهي مدة العزاء عندهم . . .

وليس لبس السود غريباً في الأحزان ، ولا جديداً على
المجتمع العربي ، فقد ذكر صاحب « صبح الأعشى » نقلاً
عن كتاب « الأوائل » للعسكري أن العباسيين اتخذوا السود
شعاراً لهم حداداً على مقتل إبراهيم بن محمد العباسي أول
القائمين بالدعوة منهم ، فلما أراد قتله مروان آخر خلفاء
بنى أمية قال لشييعته : لا يهولنكم قتلى ، فإذا تمكنتم من أمركم

فاستخلفوا عليكم أبا العباس - يعني السفاح - فلما قتله مروان ، لبس شيعته العباسيون السواد ، فلزمهم ذلك وصار شعاراً لهم .

ويظهر أن اللون الأزرق كان شعار الحداد ولبس الأحران في العصر العباسي ، وقد اتخذ الشاعر « كشاجم » من ذلك اللون المستعمل للحزن موضوعاً لعتاب حبيبة الهاجرة بقوله :

جعلت تأمل زرقاً في خاتمي

وتقول فصك ذا لباس المأتم

فأجبتها مذ بان وصلك وانقضى

فبكيت به بدم ودمع ساجم

ورغبت في لبس الحداد . . . لأنه

لبس الحزينة والحزين الهائم

وخشيت إن أنا في الثياب لبسته

أن يفطنوا ، فجعلته في خاتمي

فهذا نص شعري يبين لنا أن الثياب الزرق كانت ثياب الحداد ، وأن الشاعر المحزون لصد محبوبته جعل الزرق في خاتمه بدلاً من ثيابه لئلا يفتضح أمره ، وينكشف سره . . . على أن أهل الأندلس قد خالفوا أهل المشرق في هذا ، فجعلوا البياض لون ثياب الحداد عندهم . .

بين الخوف والأمن

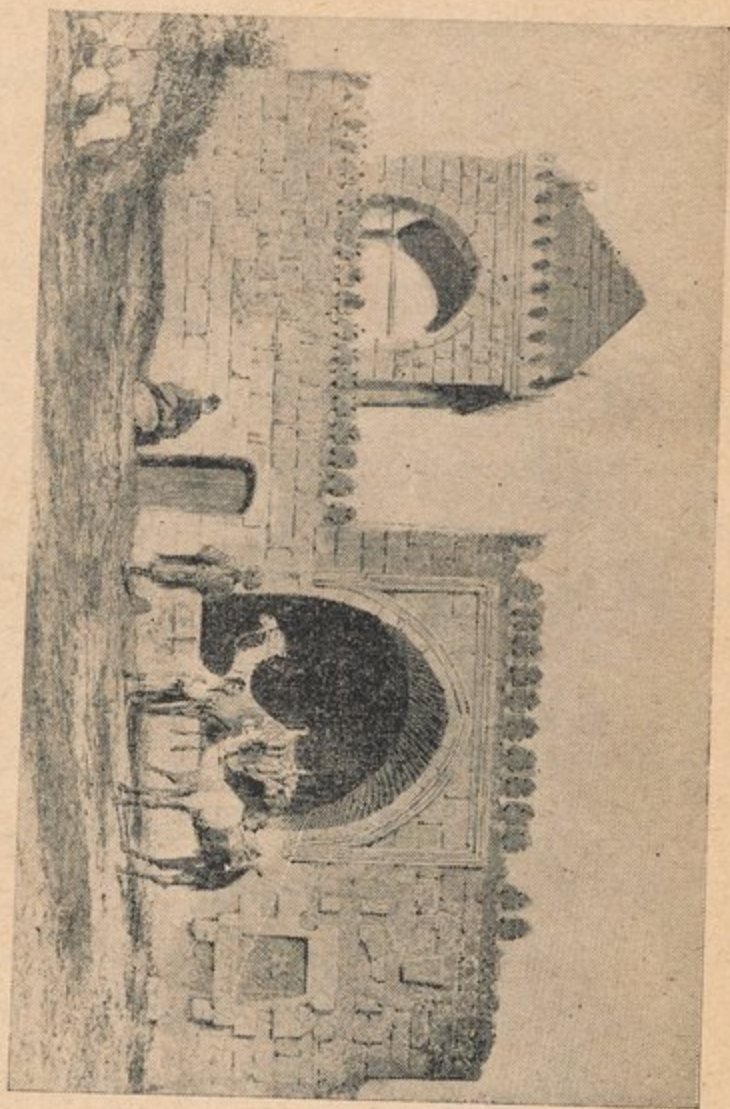
الأمن والخوف ، العيارون والشار ، اللصوص والتوابون ،
الطوفية والحراسة ، تعذيب المجرمين ، مواكب التشهير والعقاب .

ما أحسن العيش في ظلال الأمن حيث يطمئن الناس على
أرواحهم وأموالهم ، فتقر الجنوب في المضاجع ، وتنام العيون
وهي مطبقة الجفون لا تنق الردى أو الأذى بإحدى المقلتين
أو بهما معاً . . .

ولكن هل ظفر مجتمع بشرى بالأمان المطلق الذى لا
يكدره مكدر ، ولا يعكر صفوه معكر ؟ وهل ظفر المجتمع
العربى بمثل هذا السلام الذى ينشده الناس ليستريحوا ويريحوا ،
ويعيشوا من الأمن على قرار مكين ، وأساس متين ، لا على
مثل جناح الطائر حين يضرب فى الهواء . ويخفق فى الجواء ؟
لا شك أن السلطة الخازمة واليد الصارمة لا يجد القلق
والاضطراب والفتنة سبيلاً إليها ، فقد وضع زياد بن أبيه
أوزار الفتنة فى البصرة حين حكمها حكماً لا هودة فيه ، حتى
كان الرجل منهم يلتقى أخاه فيقول له : انج سعد فقد هلك

سعيد ! . ونشر محمد الإخشيد ألوية الأمن في مصر بجيش قوى كان يقف لكل تائر بالمرصاد ، وتولى « ابن ممدود » ولاية مصر في العصر العباسي سنة ١٦٣ هـ ، وكان أول وال تركي عليها ، فجعل الشدة والحزم شعار ولايته ، وضرب على اللصوص وقطاع الطرق بيد من حديد حتى أخافهم ، وآمن الناس شرهم ، فكانوا يتركون بيوتهم مفتوحة ، ولا يخشون عليها شر العابثين .

ولكن اللصوص والعيارين وقطاع الطرق لم يخل منهم زمان في تاريخ العرب المسلمين ، ولم يخل منهم حتى ذلك البيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا . . . فهذا ابن جبير الرحالة في القرن السادس يحدثنا عن الحرابة المتلصصين في مكة — تلك البلدة المكربة — الذين كانوا يختلسون ما بأيدي الناس ، والذين كانوا آفة الحرم الشريف ، لا يغفل أحد عن متاعه طرفة عين إلا اختلس من يديه ، أو من وسطه ، بحيل عجيبة ولطافة غريبة . وقد وصفهم الرحالة بخفة اليد في السرقة ، كما يفعل « النشالون » في زماننا هذا ، ولكن الله كفى الحجاج شرهم في العام الذي دخل ابن جبير فيه مكة بفضل ما أظهره أمير مكة من التشديد عليهم .



• على طريق القافلة •

وإذا كان بعض اللصوص يهاجمون في زماننا بعض المصارف والخزائن الحكومية فقد حدث في بغداد سنة ٢٣١ هـ أن جماعة من العامة هجموا على بيت المال وأخذوا شيئاً مما فيه من الذهب والفضة ، ولكن الخليفة الواثق أمر بالتشديد عليهم فأخذوا وسجنوا .

ولقد كان للشُّرط فضل كبير في تعقب اللصوص وقطاع الطرق ، فكان طوفهم وعسهم بالليل وهم يحملون السلاح إلى صلاة الفجر مما يجعل العابثين بالأمن يحسبون لهم حسابهم ، وكان يعاونهم في اقتفاء أثر المجرمين جماعة « التوايين » ، وهم شيوخ اللصوص الذين لحقتهم كبرة من السن فتابوا ، واتخذوا الاستدلال على اللصوص القائمين حرفة لهم ، فإذا جرت حادثة علموا من فعل من هي ، فدلوا عليه ؛ ولكنهم في أحيان أخرى قد يقاسمون اللصوص ما سرقوه . . . وكان الخليفة المعتضد العباسي يستعين بهؤلاء التوايين ، وقد أخفقوا مرة وأخفق الشرط . وأخفق الخليفة فوقهم في أن يحملوا لصاً على الإقرار بما سرق ؛ فما زال المعتضد بنفسه يحتال على المتهم ، وهو يحدد وينكر ، والخليفة يزيده حيلة مرة ، وشدة مرة أخرى ، حتى أقر اللص بعد أن أحضر المسروق أمامه فأسقط في يده ولم يجد سبيلاً إلى الإنكار .

وكان للصمصام من الحيل ما لا يستغرب صدوره من
طبايع النفوس البشرية مهما اختلف بها الزمان والمكان ؛
فقد سقط جسر في بغداد سنة ٢٨٣ على زورق مملوء بالناس ،
فغرق من النفوس نحو ألف نفس واستخرجت الجثث من
نهر دجلة بالكلايب والغواصين ، فمنها من عرف أصحابها ،
ومنها من لم يتعرف عليها أحد بما شوه الغرق من معالمها . . .
وارتفع الضجيج من جانبي النهر ، وكثر الصراخ من كل
مكان ؛ فبينما الناس كذلك إذ أخرج بعض الغواصين صبيا
عليه حلي فاخرة من ذهب وجوهر . . . فبصر به شيخ من
النظارة ، وكان من جماعة الطرارين ، فجعل الشيخ يلطم وجهه
حتى دمی أنفه ، ثم تمرغ في التراب ، وأظهر أن هذا الغلام
الغريق ولده . . . وجعل يندبه قائلا : يا سيدى : لم تمت إذ
أخرجوك صحيحاً سوياً لم يأكلك السمك . . . ولم تمت يا
حبيبي إلا وقد كحلت عيني بك مرة قبل الموت . . . وأخذه
على حمار ثم مضى به . . . وجاء أبو الغلام الحقيقي ، وهو
تاجر معروف مشهور باليسار في بغداد باحثا عن الغلام
مسترجعاً الله فيه ، راجياً أن يكفنه ويدفنه ؛ فخبره الناس
الخبر ، وأبلغوه أن شيخاً حضر قبل هذا وأظهر من الندبة

للغلام والحسرة عليه ما لم يدع سبيلا إلى الشك في أبوته له ،
فبقى الأب الحقيقي ومن جاء معه من زملائه التجار مبهوتين
لا يدرون ما يعملون ؛ ولكن جماعة « التوابين » في منطقة
الحسر عرفوا الشيخ المحتال من أوصافه ، فأياسوا والد الطفل
الغريق من العثور عليه ، وذكروا له أنه محتال كبير قد
أعياهم أمره ، وحيرهم كيده . ثم قصوا عليه من حيل هذا
المحتال ما نجد المؤرخ المسعودي يحكيه في براعة وطرافة .

* * *

وإذا كنا نرى بعض الكبراء والأغنياء يأخذون بعض كبار
اللصوص في كنف حمايتهم ، ويؤوونهم اتقاء لشهرهم ومدارة
لهم ، واستعداد لهم على خصومهم فإن ذلك ليس من بدع هذا
العصر ولا مستحدثاته ... فقد روى لنا صاحب « النجوم
الزاهرة » كيف كان العيارون - وهم اللصوص والفتاك - في
مدينة بغداد ، وفي القرن الخامس الهجري ، يلجأون إلى بيوت
الأتراك والخواشي نهاراً ، ويخرجون إلى التلصص ليلاً ، فيعماون
العملات ، وقد أفسدوا وفعلوا أفعالا قبيحة ، وأضاعوا سلطان
الخلافة ، حتى لم يبق للخليفة ولا لحوال الدولة معهم حكم .
ولولا مواطأة الأتراك لهؤلاء العيارين ما فعلوا في عاصمة الرشيد
فعلاتهم ...

ولم يسلم بلد عربي من هؤلاء العيارين والشطار على ممر
العصور ، فهذه مدينة « أنطاكية » في سنة ٣٥٨ هـ يهاجمها
جل من هؤلاء الشطار ، اسمه « الرعيلي » وينضم إليه
جماعة من أتباعه في هذه المهنة ، فيقوى أمره بهم . ونجد
هؤلاء العابثين في كتب التاريخ في كل عصر بأسماء
مختلفة ، ولكن الحرفة واحدة وهي النهب والسلب واللصوصية
والفتك . . . ويسميتهم المؤرخ « ابن بطوطة » الفتاك ؛ وكانت
لهم ملابس خاصة بهم ، ولهم مئزر يأتزرون به على صدورهم
يسمى « إزرة الشطار » ؛ ويظهر أنهم كانوا يبيحون نهب
أموال الأغنياء والتجار ، ولا يجدون في ذلك مخالفة للشرع
بحجة أنهم ينهبون زكاة الأموال التي لا يخرجها أصحابها . . .
هذا منطق عجيب ، يلجأ إليه المغالطون ، حين يسوغون
إثم ما يفعلون .

وليس عيار مدينة أنطاكية في القرن الرابع الهجري إلا
نموذجاً لعيارى بغداد في القرن الخامس ، وليس « الرعيلي »
في أنطاكية ، إلا مقدمة « للبرحمي » عيار عاصمة الخلافة
العباسية .

ولم تسلم مصر بدورها من هؤلاء العيارين الفتاك وقطاع
الطرق ، ففي العصر العباسي الأول وفي خلافة الهادي العباسي ،

وفى ولاية الفضل بن صالح على مصر يروى اليعقوبى المؤرخ المعروف بابن واضح أن ابن الأصمغ بن عبد العزيز خرج بناحية «أهناس» من قرى صعيد مصر فى خلق عظيم ، فقطع الطريق ، وأخاف السبيل ، ولكن الفضل وجه إليه من يحاربه حتى أتى به إليه أسيراً ، فضرب الفضل عنقه ، وصلبه — ليكون عبرة لغيره — وبعث برأسه إلى الخليفة الهادى ببغداد .

وفى عهد السلطان الناصر قلاوون ، وفى سنة ٦٩٨ هـ كثر فساد العربان ، وتعدى شرهم فى قطع الطريق ، إلى أن فرضوا على التجار وأرباب المعاش بأسىوط ومنفلوط فرائض ، واستخفوا بالولاة ، وتسموا بأسماء الأمراء ، ولبسوا الأسلحة ، وأخرجوا أهل السجون بأيديهم ، فأمر السلطان بخروج تجريدة لقتالهم ، وسدت عليهم المنافذ والممالك ، ومنع الناس من السفر إلى الصعيد حتى يفرغ المقاتلون من قتال العابثين وأخذ الطريق عليهم .

أما البلاد الحجازية فقد شاهدها ابن جبير فى القرن السادس وأول السابع الهجرى ، ولم يزعجه فيها مثل قطاع الطرق الذين يصفهم بفك عُرَا الإسلام ، واستحلال أموال الحاج ودمائهم ، وقد اتخذوه معيشة حرام ، وجعلوه سبباً

إلى استلاب الأموال ونهبها . وقد ناشد السلطان صلاح الدين الأيوبي وأعوانه على الحق أن ينقذ المسلمين بجميل نظره ولطف صنعته من هؤلاء « الحرامية » الظالمين .

ولقد كان المجرمون يساقون إلى التعذيب والعقوبات الشديدة في مواكب للتشهير بهم ، حتى يكونوا موضع اعتبار لغيرهم ، ولم يكن نصيب اللصوص والفتاك وحدهم هذا التشهير ، بل نرى في سلطنة مصر المملوكية وفي عهد الناصر بالذات أن أميراً من أمراء حلب عرف عنه أنه انتمى إلى التتار حين غارتهم على البلاد الشامية وصار يلطم على الطرقات ، فقبض عليه ، وسمّر على جمل وشهر بدمشق وضواحيها .

ونرى في بغداد قبل ذلك بكثير وفي عهد الخليفة المعتصم العباسي سنة ٢٢٣ هـ أن بابك الخرمي الثائر الكبير يقبض عليه ، فيركب على فيل ليظهر أمره وليعرفه الناس الذين اصطفوا على طول الطرق سماطين ، وكان عليه قباء من الديباج وقلنسوة مدورة من السمور ؛ وقد هيئوا له الفيل وخضبوا أطرافه . . . وألبسوه من الحرير والأمتعة التي تليق به شيئاً كثيراً ، واشترك الشعراء في تسجيل هذا الموكب التشهيري الطريف فقال بعضهم :

قد خضب الفيل كعاداته يحمل شيطان خراسان

والفيل لا تخضب أعضاؤه إلا لدى شأن من الشأن . . .
 ولم ينج من مواكب التشهير بعض المنكودين من الوزراء ،
 ممن ساقهم سوء طالعهم إلى مثل هذا المصير الأليم . . . ففى
 القرن الخامس الهجرى وفى عهد الخليفة القائم العباسى ظفر
 البساسيرى بالوزير رئيس الرؤساء على بن المسلمة ، فأخرجه
 مقيدا ، وعليه جبة صوف وطرطور من لبد أحمر ، وفى رقبتة
 مخنقة فيها جلود مقطعة شبيهة بالتعاويد ، وأركب حماراً . . .
 وطيف به فى الحال ، ووراءه من يضربه بجلد وينادى عليه ؛
 والرئيس صابر يقرأ قوله تعالى : (قل اللهم مالك الملك
 تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) .

ولم يكن ذلك العذاب آخر ما لقيه هذا الوزير الذى كان
 قبل الوزارة صاحب معرفة بالفقه ورواية الحديث . . . فإنه
 لما اجتاز بالكرخ على هذه الصورة المؤلمة رماه أهلها بالمدايات ،
 وبصقوا فى وجهه ، ثم نصبت له خشبة فى باب خراسان ،
 فأنزل عن الحمار ، وخيط عليه جلد ثور قد سلخ فى الحال ،
 ووضعت قرون الثور على رأسه . . . وعلق بكلاّب فى حلقه ،
 واستبقى فى الخشبة حياً إلى أن مات من يومه .

وسبحان الذى يعز من يشاء ، ويذل من يشاء . . .

(انتهى)

i 14202542

B 12712735

AUC - LIBRARY



DATE DUE



A.U.C

11 OCT 1993

13x
1951

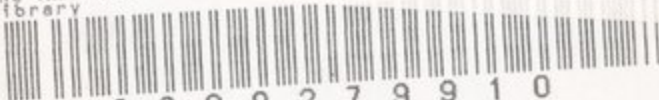
حسن فاضل عبد
مجمع من المجتمع العربي

28

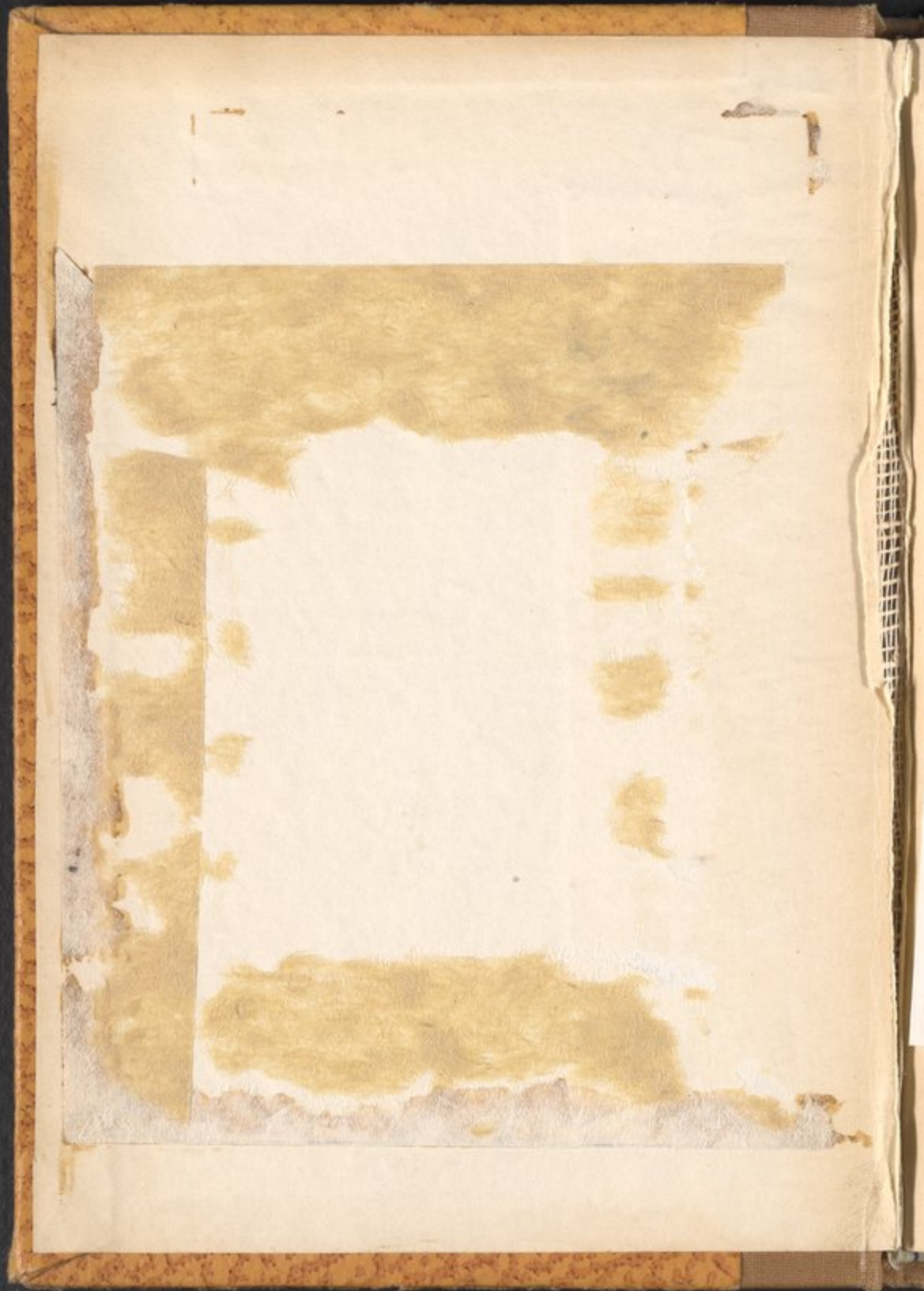
38

13x
1951

The American University
Library



0 0 0 0 0 2 7 9 9 1 0



JS
38
H3x
1951

مطبوعات حديثة

- ٣٠ الموسيقى السيمفونية : بقلم الدكتور حسين فوزى بك
٣٠ ابن جلا (تمثيلية) : بقلم الأستاذ محمود تيمور بك
٤٠ برج بابل (قصة) : بقلم الأستاذ نجيب العقيق
٧٠ التربية وطرق التدريس - جزء ثان
بقلم الأستاذ صالح عبد العزيز
٥٠ الملكة فيكتوريا (أعلام التاريخ - رقم ١)
تعريب الأستاذ وديع الضيع
٢٥ الغربال (طبعة ثالثة) : بقلم الأستاذ ميخائيل نعيمة

ملزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر

- المركز الرئيسى بالقاهرة : شارع مسير و رقم ٥ ت ٤٩٨٦٨
فرع الفجالة بالقاهرة : شارع كامل باشا صدق رقم ٩ ت ٤٩٨٦٦
فرع الإسكندرية : ميدان محمد على رقم ٢ ت ٢٣٥٨٨
مكتب السودان : سودان بوكشوب بالخرطوم ت ٢٠٨٩
مكتب سوريا ولبنان : شارع السور بناية العسيلي ببيروت ت ٦٧/٣٥